IRAQI Academic Scientific Journals
العراقية المجلات الأكاديمية العلمية
ISSN: 2663-9033 (Online) | ISSN: 2616-6224 (Print)
Journal of Language Studies
Contents available at: http://jls.tu.edu.iq

The novelistic construction, a reading of the novel Sadda Makhoul by Ibrahim Hassan Nasser

Asset .Pro. Dr. Ramadhan Ali Abood*
Salah al-Din Education Directorate-Sharqat Education Department
Ramdanabood85@gmail.com

Recived: 1/8 /2022, Accepted**:** 20 /8/2022, **Online Published: 31 /8/ 2022**

Abstract

The research delves into a study of the authorship in the novel "Sadda Makhool". It starts from an artistic viewpoint indicating that the narrative universe is based on the artistic elements, which construct the narrative structure (action, character, time, and place). The study resorts to approach each one of those elements, reveals the richness and the important role to enrich the narrative universe and how the activities of those elements contrast from work to another. The action materializes and shows up the narrative temperament through which characters vie and conflict throughout the place and time that could be changed according to the narrative ambition that writer attempts to achieve.

Keywords: Fictional universe, elements, event and character, time and place.

* **Corresponding Author**: Asset .Pro. Dr. Ramadhan Ali**, E.Mail**: Ramdanabood85@gmail.com
Tel: +9647702318941**, Affiliation:** Salah al-Din Education Directorate -Iraq

الكون الروائي
((قراءة في رواية صدى مكحول))

للكاتب: ابراهيم حسن ناصر

أ.م. د. رمضان علي عبود

مديرية تربية صلاح الدين _ قسم تربية الشرقاط

الملخص: تناول البحث دراسة الكون الروائي في رواية صدى مكحول، وهو ينطلق من منظور فني ان الكون الروائي يرتكز على العناصر الفنية المشيدة للبناء الروائي (الحدث، الشخصية، الزمان، المكان)، وقد عمدت الدراسة الى مقاربة كل عنصر من هذه العناصر ،والكشف عن غناه ودوره المهم في اثراء الكون الروائي ،وكيف ان هذه العناصر تتفاوت فعالياتها من فعل الى اخر ،اذ يتجسد الحدث ويتكشف عن حساسية سردية تتبارى فيها الشخصيات وتتصارع في ظل فضاء مكاني وزماني قابل للتغير والتحول بحسب الطموحات السردية التي يسعى الكاتب الى تحقيقها.

الكلمات الدالة: الكون الروائي، العناصر، الحدث والشخصية، الزمان والمكان.

المدخل

ينهض البناء الفني للرواية على اســـاس واضـــح ومحدد، هو ان الرواية ترتكز في بنائها على عناصر فنية اربعة، هي: الحدث والشخصية والزمان والمكان، وان هذه العناصر تمتلك حضورا ودورا فاعلين في النص الروائي، فلا وجود لنص روائي بدون تلك العناصـــر مطلقا. تترابط هذه العناصر الفنية في النص الروائي ترابطا وثيقا، بسبب ان مكونات العنصر الفني تستمد وجودها من مكونات العناصر الاخرى ويتم هذا التداخل في مرحلة تشكيلية من مراحل البناء، ذلك ان كل عنصر يتميز بوظيفة معينة، فالشـخصـية مسـؤولة عن انجاز الحدث، بوصـفها تقوم بأفعال او اعمال تترابط فيما بينها بعلاقات معينة سببية كانت او زمانية، ومن خلال ذلك الترابط وامتداده على مستوى الزمن يتشـــكل الحدث العام للرواية. ينتظم الحدث الروائي من خلال الزمان، فهو يتكون من ســـيل الوقائع المارة فيه، ســـواء اكانت بشـــكل متتابع او متناثر، بحســـب ما يراد له ان يكون. ومثلما يرتبط فعل الشخصية بالزمن، ترتبط الشخصية وفعلها بالمكان، اذ لا وجود لشخصية بدون مكان، فمتى وجدت الشـخصـية وجد المكان معها، بوصـف المكان الاطار او الحيز الذي تتحرك فيه الشـخصـية او تقيم فيه. وتتحدد دلالة المكان بحسـب رؤية الشـخصـية له. تنطلق هذه المقاربة السـردية في سـعيها من خلال رؤية فنية ترى ان الكون الروائي يرتكز على تلك العناصـر (حدث، شـخصـية، زمان، مكان) بتضافرها معا وهي تتشكل على وفق طموحات سردية يخلقها الروائي ويؤلفها الخيال النشط والفعال .

يرتكز الكون الروائي على العناصر الفنية المشيدة لمعمار الرواية، الحدث، الشخصية، الزمان، المكان.

1- الحدث.

يعرف الحدث في مفهومه السردي بانه ((مجموعة من الوقائع الجزئية مرتبطة ومنتظمة على نحو خاص))[1]. وثمة مشكلة تتعلق ببناء الحدث يضطلع بها الراوي ((تكمن في ترتيب الوقائع التي تشكل مهمة الحدث ترتيبا متتاليا متوازيا او متناوبا او متداخلا، اي في عرضه خاضعا لتسلسل زمني صاعد، او متقطع او متراجع. فأي حدث فني يخضع لنظام ترتيب معين))[2].

تعتمد رواية صدى مكحول في ترتيب احداثها على نسق البناء المتداخل، الذي تتداخل فيه مستويات الزمن بين الماضي والحاضر والمستقبل، بما يتيح للوقائع ان توظف توظيفا جديدا يتناسب وطموحات الكاتب . وقبل الولوج في تتبع حركة جريان الاحداث ،وطبيعة التداخل الزمني ،وآلية الترابط الفني الجمالي بين حلقات الحدث لابد من الاشارة الى ان رواية صدى مكحول تتكون من اربعة اجزاء ،الجزء الاول يبدا من صفحة (7) وينتهي في صفحة (22)فيما يبدأ الجزء الثاني من صفحة (23) وينتهي في صفحة (54).ويبدأ الجزء الثالث من صفحة (55) وينتهي نهاية صفحة(97).اما الجزء الرابع والاخير فيبدأ من صفحة(98) وينتهي بانتهاء الرواية في صفحة(126) . وعند متابعة السرد في تقديمه لوقائع الحدث في الجزء الاول نجد ان الحدث الروائي يبدأ بدعوة المختار عطية السلمان ابناء القرية الموجودين في القرية وخارجها في الحقل او في المراعي المحيطة بالقرية، وعبر مكبرات الصوت من جامع القرية لحضور عرس ولده ممدوح في اليوم الثاني. ليأتي هذا اليوم ومنذ الصباح الباكر يبدأ ابناء القرية بالتوافد الى بيت المختار، اطفالا ونساء ورجالا ... الكل يتوافدون الى بيت المختار، وحتى الكلاب اخذت تحوم حول البيت، اذ ان المختار ذبح ثورا كبيرا وهي تبحث ان تفوز بشيء من بقاياه. يقول الراوي :((الشمس تصعد للسماء رويدا ،رويدا بعض الكلاب تحوم حول بيت المختار لعلها تجد بقايا من جلد او ذنب ،او بعض امعاء او اي شيء من ذلك الثور المذبوح ،بدأ الرجال يتوافدون الى بيت المختار فالقرية الان كلها مبتهجة بزواج ممدوح ،انه الزواج ،زواج ابنه. كل شيء في هذه القرية مرتبط بالمختار. المحاصيل تجمع ثم ينزلها للسوق المختار. وكل عقود الزواج لا تتم الا بموافقته. بل والطلاق ايضا وحتى الجنود مسؤول عنهم المختار عطية السلمان....)) [3]. فالمختار هو صاحب السلطة في القرية، وهو الأول والاخير، الآمر والناهي، وهو دعا كل ابناء القرية للمشاركة في عرس ابنه، فلابد من الاستجابة له لتقديم المساعدة في متطلبات العرس والمشاركة في هذه المناسبة، وحضور الوليمة الكبيرة التي اقامها لأبناء القرية ابتهاجا بهذه المناسبة. بعد تناول العشاء ،تبدأ مراسيم العرس ،بدأ" بجلب العروسة من بيت اهلها الى بيت العريس ،ومن ثم بدأ الدبكة ،و(المطبگ)،

والغنـــاء ،والزغـــاريـــد والفرح الغـــامر. يقول الراوي:((زغـــاريـــد النســـــــاء وهلاهلهن يقطعن صـــــوت(المطبگ)،بعض الطلقات النارية تطلق بين لحظة وأخرى ..كل الذين في بيت المختار يقفزون فرحا وطربا بعرس ابنه ،وكأنهم في حفلة طرب زنجي .كانوا يتماوجون مع (المطبگ) بلا ملل او جزع ،وبيت المختار اخذ يغص بهم .انه كالســـفينة التي تعج بالمســـافرين ...))[4].يتابع الراوي اوضـــاع العرس والفرح، الدبكة و (المطبگ) والغناء ...يســتغل (احمد)حبيب ابنة المختار ظروف العرس وانشـــغال الناس بمتابعة الدبكة والغناء، ووالدها واهلها بضـــيوفهم ،فيلتقي بحبيبته (وحيدة) ابنة المختار .يقول الراوي:((انزويا بعيدا عن اعين المحتفلين بالعرس ،ودخلا في زريبة الابقار .خمس ابقار تضـطجع وتجتر طعامها وانفاسـها منتظمة .. سـحبها من يدها الدافئة وقف امامها. لا شـــيء ســوى البقر الغبي الذي لا يعرف الحب.. دنا وجهه من وجهها، احاط خصـــرها بيديه. التصـق بها التهم شـفتيها وغابا صـارا كتلة واحدة، قبل نهداها، بعثر ضـفائرها وغرس رأسـه في شـعرها))[5]. وتكشـف الاحداث من خلال هذا اللقاء الذي تم بين احمد ووحيدة ان حالة الحب بينهما متوطدة وعميقة، فهي لم تكن وليدة لحظة العرس ، وانما هي سـابقة عليها اذ تمتد الى ايام او اسـابيع وقد تكون شـهورا عدة ،نسـتشـف ذلك من خلال طبيعة العلاقة ،وعمق التفاهم والتفاعل بينهما وتعلق كل طرف بالآخر من دون توقف عند حدود معينة، بل من دون اي توجس او خوف .يسـتمر اللقاء بينهما وهما يسـتغلان ظرف ذلك اليوم الذي شـغل الجميع ،ليخرجا بعدها من اطار البيت الى الحقل . يقول الراوي : ((ثم انطلقا بعيدا عن العرس وكانه لا يعنيهما ،يســـيران بين الاكواخ المقفرة التي هجرها اهلها متوجهين الى بيت المختار ..وصـــلا الحقول، مشـــيا في حقل الحنطة والندى يبلل ارجلهما واســـفل ملابســـهما ،ثمة طير يطير مذعورا من تحت العاشـــقين ...))[6].يتابع الراوي ما يدور في بيت المختار من حيث الافعال ..الدبكة و (المطبگ) وطبيعة الغناء ...ثم يعمد الى تقديم سـردي طويل عن المختار ،وصـفه الشـخصـي ،طبعه العام من حيث تسلطه على ابناء القرية وتمسكه بكل امور الناس في القرية ،زواج ،طلاق ،تجنيد ،بيع المحصول ...الخ . بعدها ينتقل الراوي الى متابعة احمد وحبيبته وحيدة ويرصـــد طبيعة افعالهما في الحقل، ليفاجآ اثناء وجودهما في الحقل بمطاردة العريس ممدوح للعروســـة التي لم يســـمها الراوي، ليعودا احمد ووحيدة خلســـة الى البيت ،ويتم تبليغ المختار وجميع الحضـــور بهروب العروســـة . يقول الراوي:((ينطلقان راكضـــين لكنهما غير مطاردين .لا احد يطرد الاخر .لا احد يريد افتراس الاخر ...بعد لحظة يصـلان بيت المختار .كأن شـيئا لم يحدث الكل يواصـل الاحتفال .الدابكون يدبكون والموسيقى تعزف الوانا من الهرج ..تصرخ وحيدة بقوة وتصيح : اوقفوا الاحتفال لقد هربت العروس .لقد هربت ..هيا الحقوا بها – ممدوح يطاردها ، واجتازوا حقول القمح ...هيا .هيا.))[7]. وبعد التدقيق بغرفة العريس وجدوا هروب العروسة من الشباك، بعد ذلك تمت ملاحقتها من قبل المختار

وكافة الحضـــور وأكثر ابناء القرية الى الحقل، ومن ثم تخطيه والى النهر، لينتهي الجزء الاول بغرق العروسة في النهر. في الجزء الثاني يبدأ الحدث بالكشف عن موقف الشخصية الرئيسة في ســاحة المعركة الجندي مخلف النايف ،وهو يعلن عن تألمه وحزنه العميق على الخســارة الكبيرة التي مني بها العدو بالأرواح التي زهقت بلا اي سبب ،والدماء الكثيرة التي تملأ ارض المعركة ،لا ســيما وهو ينتقل في ســاحة المعركة بين الجثث المتعددة ،والاشــلاء المتناثرة ،التي راح يحمل مسؤوليتها على غطرسة وظلم حكامهم ،بعد دفعهم الى شن هجوم كبير وواسع على قاطع وحدته .ثم يتابع الراوي الاحداث في ســاحة المعركة ،وعن الدور الذي يقوم به عدد من المقاتلين ،وما يقدمون من تضــحيات ومن واجبات في ســاحة المعركة. يكلف المقاتلان مخلف النايف وخلدون بواجب تنفيذ دورية في عمق ســاحة المواجهة مع العدو ،يســتجاب للأمر ،وتشــرع الدورية بتنفيذ المهمة من دون اي نقاش .يقول الراوي : ((يندفع مخلف النايف وخلدون كل يحمل سلاحه وجهاز ارســال لاســلكي بيد خلدون .عليهم ان يعرفوا مواقع العدو الذي امامهم وتحركاته .مواقع ضــعفه .اماكن قوته .ثم يعودوا قبل الفجر والا حصــــدتهم نيران العدو...))[8].تنفذ الدورية بدقة وثبات ،يواجه المقاتلان مخاطر جمة، منها تعرضهم لدورية من العدو، تحدث مقابلة بينهما تهرب الدورية امامهم ،يأســرون احد افرادها ،يقع في قبضــتهم ،يتبين انه يجيد العربية، يتحاوران معه ،يفهمون ظروفه وظروف عائلته الفاقدة لعدد من ابنائها ،ثم يتفقان على اطلاق ســراحه اكراما لتكلمه العربية وترحما على عائلته المغلوب على امرها. يعودون بعدها الى وحدتهم العسكرية، يتعرضون اثناء العودة الى عاصفة ثلجية شديدة تفتك بهم، تعيق سيرهم، تضعف قواهم، تنهكهم....

يقول الراوي:((بدأ صفير الريح بالاشتداد ...ريح باردة أخذت تدفع الغيوم بقوة نحو الجبال .نحو الوديان .وذرات الثلج تلفح وجوههم كأنها الخناجر .صــارت الريح ضــدهم .تدفعهم للوراء .يندفعون للأمام .ثقال بأجسامهم ومعداتهم العسكرية .ثم تزداد سرعة الريح ،وتزداد كمية الثلوج المصــطدمة بهم تتراكم في الارض كميات كبيرة من الثلج الذي تبكيه الغيوم .... خلدون ومخلف في وســط الثلوج في وســط الريح المزمجرة يتقدمان للأمام ببطء .يقتربان من احد الجبال التي صارت مجرد كتلة بيضاء ترتفع للأعلى ،واشجار عالية قوستها الريح وغطتها الثلوج...))[9].يسير كل منهما على لا هيته وحســب طاقته التي باتت مشــلولة ،يفقد احدهما الاخر يحاول كل منهما الاختباء في بعض الكهوف ،بين الاشجار ،يتابع الراوي تلك الاحداث ويرصدها بالتفصيل .بعدها يصـر مخلف النايف على البحث والالتحاق بزميله(خلدون) الذي سبقه بعض الشـيء في السير ،فراح يجول ببصره يمينا ويسارا ..ينادي عليه بأعلى صوته وهو يسير الى أمام مقتفيا طريقه.

يقول الراوي:((وقف متطلعا للأرض التي حوله وحيدا، منهك القوى، اجال نظره الى الافق البعيد لا شيء سوى الثلوج الصامتة. نادى بأعلى صوته:(خلدون ...خلد...و..ن) فتردد الصوت

بالجبال مكررا (خلدون ...خل ...دو...ن)لم يسمع مجيبا سوى تردد الصوت .مشى بضع خطوات نظر للارض التي امامه باحثا عن خلدون .ثمة شـيئين اسـودين احدهما قرب الاخر يفترشـان الارض ،يركض نحوهما وطبقات الثلج تنضـغط تحت قدميه ،يقترب منهما يقف فوقهما ،ينحني عليهما بجسـده المتعب ويحفر الثلج من حولهما ،تتوضـح المعالم كثيرا .كان الشـيئان الاسـودان حذاء خلدون العسـكري الذي بقي من جسـده لم تغطه الثلوج...))[10].فمخلف النايف اخيرا يجد زميله خلدون وقد قضـي أمره، بسـبب عاصـفة الثلج القوية ،فهو لم يكن الا عبارة عن جثة هامدة مغطاة بالثلج الا بعض المعالم المرتفعة التي لم يغطها بعد الثلج، والتي سـهلت كشـف الجثة .يعمد مخلف النايف الى نقل جثة زميله خلدون وتأمينها قرب بعض الاشـجار ،بوصـف المكان شـاخص ومعلوم ،ليسـهل على الدورية التي سـتكلف بأخلاء الجثة ،بعد وصـوله الوحدة والابلاغ عنها من العثور عليها بيسـر وسـهولة ، ومن دون اي عناء ،ولاسـيما ان المكان محفوف بمخاطر جمة .يؤمن الجثة في المكان المقرر يشـتد البرد والعصـف عليه ،وهو في الارض الحرام ،يسـتكن في مكانه قرب الجثة ،يحتمي بالأشـجار ،يحاول مقاومة الظروف يشـعر بالأمان قليلا ،ينسـى نفسه ،تعود به الذاكرة الى البيت ،الاهل ،القرية ....الحبيبة حسنة وآخر لقاء تم معها يقول الراوي:

((يقف خلف الدار بجانب الشباك الذي يتوسط غرفة حسنة .... نائمة مطبقة جفونها على عينيها. وانفاسـها تشـهق وتزفر بهدوء ونهداها بارزان للأعلى كالقبب. شـعرها الاسـود مبعثر على الوسـادة ويداها حمراء قاتمة بفعل الحناء. كم هي جميلة ورائعة حسـنة في الليل؟ شـاحبة بعض الشـيء على ضـوء الفانوس الاحمر ...مد العصـا من خلال الشـباك، وهو راجف خائف، ارتطم رأس العصا بصدرها تحت نهدها الايسر قفزت فزعة...))[11]. يكشف هذا الاسترجاع الذي يطول نوعا ما والذي تعود بـه ذاكرة مخلف النـايف الى خـارج نقطـة انطلاق الحدث الروائي ان مخلف يحب حسـنه وانه تربطه بها علاقة حب متينة، وحصـل بينهما لقاءات سـرية كثيرة، وانه في هذا اللقاء الاخير اتفقا على الزواج، واوعدها انه سـوف يقدم على طلب يدها والزواج منها في اجازته القادمة. يقول الراوي:

((– لم استيقظ لهذا يا مخلف.

– اريد ان اودعك، اكلمك عن زواجنا.

– سأطلب يدك من ابيك بعد انتهاء الحرب.

– ولماذا انتهاء الحرب؟

– لأني اريد ان اكون قربك دائما.

– اتخشى بعدي عنك ؟.

– بل أخشى فراقك. لأني افقدك. اريد ان اكون بجانبك ليل نهار.

– .....

– اذا اردت الزواج مني فلتطلب يدي من ابي الآن، فالذي يحب لا تمنعه الحرب عن الزواج ممن يحب))[12].

يزداد القصف على المكان ،يعود مخلف الى حاضره السردي ،يواصل المشي نحو وحدته التي عدته في عداء الشهداء ،يسير نحو وحدته ،يقترب منها ،يسترق السمع ،ينادي على اصحابه في الوحدة العسكرية ،واخيرا وبعد عناء كبير يصل وحدته ،وسط فرح كبير ،يحتفى به كثيرا من قبل زملائه ،يكرم بمنحه اجازة زمنية لعدة ايام ،يفرح بها كثيرا ،ثم يخبر زملاءه انه سيتزوج في هذه الاجازة ، فهو يبني آماله واحلامه على وعود وعهود سابقة .ويرصد الراوي كيفية تم نقله من خطوط المواجهة في منطقة جبلية في قاطع السليمانية بطائرة مروحية المخصصة لنقل الارزاق والجرحى والجثث الى المناطق الخلفية الآمنة .فيصف الراوي طبيعة طيران الطائرة المنخفض وتماوجها بين التلال والوديان ،وكيف هي الشجاعة المتميزة التي تميز بها الطيار وهو يصل بطائرته احيانا الى حد التماس مع العدو ،وحتى خروجه من ساحة الحرب ،ليدخل بعدها اجواء مدينة السليمانية الآمنة ،فيبدأ بالارتفاع شيئا فشيئا ، ويصف الراوي السليمانية من الاعلى ،وكم هي جميلة بأشجارها المتنوعة وشوارعها المتقاطعة الكثيرة ،جبالها العالية المغطاة بالثلوج .....حركة ناسها ،آلياتها المختلفة. تحط الطائرة بعدها في مطار السليمانية العسكري، ينزل مخلف النايف منها يتجه الى أسواق السليمانية، يتبضع منها ملابس وعطور، حلويات وحاجيات مختلفة، وكأنه على موعد زواج فعلا. ينطلق نحو مدينته، والى قريته ...يصل البيت، يمتلأ الحوش بأكثر ابناء القرية، رجال ونساء، أطفال وشباب حال سماعهم خبر عودته من الجبهة، وراح يسأله البعض عن ابنائهم، عن احوال الحرب، وضع الجبهة .... الخ.

يفرح الاهل، الاصدقاء، الاطفال، الجيران وكافة ابناء القرية، توزع ام مخلف الحلويات على الحضور ابتهاجا بعودة مخلف من الجبهة سالما، يعمد مخلف الى توصية امه ان تحافظ على العطور التي جلبها من السليمانية على انها لعروسته، بعدما كانت امه تظن أنه جلبها لها، هدية الابن للام، ولا سيما هو ما يزال اعزبا. تفاجأ الام في الاول وتفرح كثيرا ، وهي تسمع ابنها وهو يتكلم عن الزواج .....العروسة. تسأله، تؤكد عليه انه ممن يروم الزواج، يصرح انه سيتزوج من حسنه. تنعقش الام وتحزن وتنسحب الى غرفتها. فهو لم يعلم بما جرى لحسنه اثناء غيابه في العسكرية، من انها زوجت من ابن المختار، وانها اغرقت نفسها في النهر، وكان سبب انتحارها في النهر غامضا من قبل كل ابناء القرية . الا ان تصريح مخلف في الحاضر السردي بانه ينوي الزواج منها لفت انتباه الام، وبعض الحضور، وهو في طريقه لكشف الحقيقة. تقترب منه عجوز وتهمس في اذنه بكل ما جرى لحسنه .يعلم بالموقف ،تثور ثائرته، يخرج من البيت بملابسه

العسكرية وبندقيته مسرعا وهو يشق جمع القرويين باتجاه النهر، ليغرق نفسه فيه اسوة بحسنه ،الا انه عبر النهر ،لتستقر به الحال في النهاية في الضفة الاخرى من النهر ،وتنتهي احداث هذا الجزء بلجوء مخلف الى قلعة آشور القريبة من شاطئ النهر .اما الحدث في الجزء الثالث فهو ينطلق من وصول مخلف النايف الى قلعة آشور ،اذ يثيره في القلعة سماعه لخطاب متواصل يخرج من داخل نفق القلعة الطويل والمظلم ،يسترق السمع جيدا ،يتوقف عند باب النفق ،يسمع الخطاب جيدا ،يتمعن فيه وهو موجه الى آشور يشيد به ،يمجده ،يفخر به ،يغور في عمق التاريخ والحضارة ،مفعم بالحقائق والاصالة والوجدان .....ويطول هذا الخطاب ليشغل مساحة كبيرة من النص الروائي. ينبهر مخلف من الخطاب بعد سماعه كاملا ،وهو كان يظنه في الاول انه حديث المجنون الذي سمع عنه كثيرا ،وانه يسكن في القلعة ،ويتناقل اخباره ابناء القرية .يطيل مخلف المكوث وهو يسمع ذلك الخطاب الذي ايقن في النهاية انه لا يصدر الا من شخص واع ومثقف .وبعد مكوث مخلف طويلا عند مدخل نفق القلعة حتى خرج ذلك الرجل صاحب الخطاب من جوف القلعة ،والذي بدا اولا ماقتا لوجود مخلف النايف عند مدخل القلعة ،قلقا وحذرا منه ،وبعد حوار طويل جرى بينهما توصلا في النهاية الى تفاهم معين تمكن بعده مخلف النايف من استدراج صاحبه بعد ان عرفه بنفسه وسبب مجيئه الى هذا المكان ،وهو ما سبق وان كشفته الاحداث الروائية. يأخذ الاخر بتقديم نفسه انه نمر الفلسطيني من فلسطين المحتلة المغتصبة ارضا وحضارة ،المعذب شعبها ،المشرد في بقاع الارض .....وبعد سرد يطول كثيرا ويشغل مساحة كبيرة من مساحة النص الروائي، قدم فيها تفصيلا عن معاناته وهو في بلده فلسطين، وكيف كان هو ظلم الصهاينة ،وما واجهه اسوة بأبناء شعبه من معاناة لم يشهد لها تاريخ الانسانية من ذي قبل، قصف عشوائي دائم على الاحياء السكنية ،تهجير يومي ،سبي للنساء ،انتهاكات شتى ،ويروي قصص مختلفة من الانتهاكات والاغتصاب مورس الكثير منها حتى في دور العبادة ،عاش الكثير منها ،وشاهد البعض الاخر بأم عينيه في سجون ومعتقلات شتى يتواجد فيها صهاينة وايرانيون، وكيف كان تركيزهم على النساء ولا سيما الشابات منهن .لينتقل بعدها الى سرد كيفية وصوله الى هذا المكان قلعة آشور وهو يعبر الحدود ،والمخافر ،وسيطرات التفتيش، ودوريات الحدود ...الخ ، فيكشف عن المعاناة والحيل التي عبر بها الحدود ،وكيف ادعى من نفسه لاحد رجال البدو انه صياد نسور ،ومن ثم تمكن من خلاله الانتقال الى قوافل البدو التي بواسطتها عبر اكثر الحدود. فيروي نمر الفلسطيني كل ما واجهه وعاشه عبر الصحراء وبين خيام البدو، وعبر الحدود والسيطرات وفي ركب القوافل المتنقلة وهي تعبر الحدود من دون جواز سفر ومن دون ان تمر بنقاط السيطرات او التفتيش وحتى ان استقر في هذا المكان. وتستمر الاحداث بالتدفق المتسلسل المتتابع في هذا الجزء وهي تتمحور حول نمر الفلسطيني بعد لقائه بمخلف

النايف بقلعة آشـور ورواية كل ما واجهه في فلسـطين من ظلم وتشـرد وكيفية وصـوله الى هذا المكان عن طريق قوافل البدو. اما الجزء الرابع فتأتي الاحداث فيه مكملة لما سـبقت في الجزء الماضـي ، وهي تسير ايضـا بشـكل متتابع، بعد ان حصـل التعارف بين نمر الفلسـطيني ومخلف النـايف في هذا المكـان الموحش (القلعـة)والخـالي من كل شـيء الا منهمـا وبعض الحيوانـات المفترسـة اذ وحد بينهما المكان ومن اثره انبثقت بينها رابطة من المودة والاخوة ،وتعلق كل منهما بالآخر ، ولا سيما ان كلا منهما يحمل بندقية ، فقررا النزول الى الغابة المجاورة والبحث عن صيد ما لسـد رمق جوعهم ،ليفاجآ بكثرة وجود الخنازير فيها، فتم قتل كل ما خرج منها تخلصـا من شـره اولا ، ومن ثم شـوي لحم احدها وأكله لعدم وجود بدلا عنه، ومن ثم لسـد رمق الجوع. وتسـتمر الاحداث بالتسـلسـل بالأفعال المتتالية حول الصـيد، الموقف من الخنازير ، الحيوانات والطيور الاخرى ،الحوارات المتبادلة، الأفكار ،الرؤى ،القناعات بالعرب، ثرواتهم ،مسـتقبلهم ،حكامهم .....الخ. وتسـتمر الحال بهم وهم قرب الغابة يشـوون اللحم ويتبادلون الحديث والحوارات حتى مرور طائرات عراقية مقاتلة في اعالي السماء من فوقهم، وهي متجهة نحو الشرق فتحفز افكارهم وغضـبهم، وتثير بهم النخوة والوطنية تجاه وطنهم وامتهم، فقررا التوجه الى الشـرق لمقاتلة العدو والدفاع عن وطنهم، ولا سيما ان مخلف النايف كان عائدا من الجبهة بإجازة محدودة، فسارع الى عبور النهر وهو متجه الى الشـرق لمواصـلة قتال العدو، وابى نمر الا ان يكون معه، لان العدو واحد وهو يهدد امن ومسـتقبل العرب جميعا. فالحدث تبعا لتسـلسـله الزمني الذي يفهم من سـياق الاحداث وبحسـب وقوعها الزمني هو كالاتي: تعلق مخلف النايف بالحبيبة (حسـنه)وتعلقها به، وحصـول بينهما لقاءات ليلية سـرية تنتهي بالاتفاق على الزواج بعد مفاتحة اهلها في اقرب اجازة عسـكرية قادمة. يلتحق مخلف في اليوم الثاني الى الجبهة، وحيث سـاحة الحرب فيفارق القرية وتقطع اخبارها عنه. تنكشف هذه الاحداث من خلال استرجاع مخلف النايف في لحظة معينة في ساحة المعركة. حصول حالة حب اخرى تصل الى حد العشق في القرية وبسرية عالية بين احمد احد ابناء القرية ووحيدة ابنة المختار المتسلط على ابناء القرية والقاسي جدا ،وترى وحيدة علاقتها بـأحمد وحبهـا لـه أنهـا علاقـة عقيمـة ،لان احمـد معـدوم الحـال ،وابوهـا المختـار يزدري الفقراء والمحتاجين ولا يمد لهم اي صـلة...فهي تلتقي بأحمد وترغب بالزواج منه ،لكنها يائسـة من موافقة ابيها المختار بزواجها من احمد .يقدم المختار على طلب يد(حسـنه)عشـيقة الجندي مخلف النايف الذاهب الى الجبهة لأبنه ممدوح ،تحصل الموافقة من دون ان يرد له اي طلب ،فهو مختار القرية. يقرر يوم العرس يدعو ابناء القرية جميعا وعبر مكبرات جامع القرية، يحين يوم العرس يحضـر كـل ابنـاء القريـة، تقـام الوليمـة الكبرى، تبـدأ مراسـيم العرس والزفـاف فتبـدأ الـدبكـة، والغنـاء و(المطبگ)،....يسـتغل احمد اجواء العرس في بيت المختار للقاء بحبيبته وحيدة ابنة المختار

نفســه ،فيتم اللقاء في زريبة الابقار. ثم دفعتهما حرارة اللقاء والتعطش لبعضــهما الى الخروج من الزريبة واجواء العرس المحيطة الى الحقل بعيدا عن اعين الناس، وفي الحقل وبينما هما في اعلى درجات الانتشاء، ويمارسان طقوسهما بحرية تامة يفاجآن بمطاردة ممدوح لعروسته حسنة، وهي تقطع الحقول متجهة الى النهر، وهي مصممة على اغراق نفسها فيه، ومن دون معرفة الاسباب. تعود وحيدة وعشيقها احمد الى البيت خلسة بعد رؤيتهما المطاردة للعروسين على مقربة منهما في ظلمة الليل لتخبر بهروب العروسة باتجاه النهر. وبعد معرفة المختار والد ممدوح وجميع الحضور بما حدث خرجوا جميعا الى النهر، وهناك عند النهر وجدوا ممدوحا لوحده وأخبرهم ان حســـنه هربت منه ولاحقها ولم يتمكن من الامســـاك بها حتى ان اغرقت نفســـها. ينتقل الراوي بعدها الى متابعة مخلف النايف المقاتل في جبهة القتال ، فهو في خطوط المواجهة مع العدو يقوم مع عدد من المقاتلين بمختلف الواجبات ،والتعرضـــــات لا فراد العدو ، يكلف بدورية مع المقاتل خلدون مهمتهما الدخول في عمق دفاعات العدو لغرض جمع المعلومات عنه ،تنفذ الدورية بعد صعوبات مختلفة ،ثم يعودان ويتعرضـــان . لعاصـــفة ثلجية باردة وقوية ،تفتك بهم ،تضـــعف قواهم ،تعيق حركتهم ،ثم يفقد احدهما الاخر، فيسير كل على هواه وحسب همته، يسبق خلدون مخلف النايف وهما يسـيران في نفس الاتجاه ،يسـقط خلدون من شـدة البرد وهول العاصـفة الثلجية ،يلقى على الارض ثم يفقد حياته ،يواصل مخلف النايف السير والتقدم في نفس طريق صاحبه خلدون باتجاه الوحدة العسكرية بخطى متثاقلة انهك صاحبها البرد الشديد والسهر والتعب ،وفي اثناء تقدمه عثر على صـــاحبه (خلدون)جثة هامدة، يعمد الى نقل الجثة الى مكان قرب بعض الاشـــجار كعلامة دالة تسهل على دورية الاخلاء العثور عليها وأخلائها بسرعة من دون تأخير. يعود مخلف النايف الى وحدته ، ثم يصـــل الوحدة بعد عناء كبير، يفرح به الجنود كثيرا، وبعد الاحتفاء به، يخبر عن زميله خلدون ،تكلف دورية بأخلائه. يكرم مخلف لشـــجاعته وصـــبره في تنفيذ الواجب بأجازة لعدة ايام، يفرح بها كثيرا، يخبرهم انه ســـيتزوج في هذه الإجازة ،فهو يبني آماله على علاقته بحســـنه، ينقل من الوحدة العســـكرية في المنطقة الجبلية بطائرة الارزاق ،لينزل بعدها في مطار الســـليمانية ،يتبضـــع من مدينة الســـليمانية حلويات ،عطور وبعض الحاجيات الاخرى ،فهو على موعد عرس حسـب ظنه .يصـل البيت يحتفى به كثيرا من قبل الاهل والجيران واكثر ابناء القرية، يوصـي امه بالمحافظة على العطور، وانه جلبه للعرس ،ثم يعلن انه ســيتزوج من حســنه ابنة الجيران، تخبره عجوز من الحضور بالهمس بأذنه بما جرى لحسنه ،يفاجأ وتثور ثائرته ويخرج بملابسه العسكرية ومعه بندقيته متجها الى النهر، ليغرق نفسه هو الآخر ويلتحق بحسنه ،الا انه وبعد وصوله النهر عبر النهر الى الضـــفة الاخرى من دون ان يغرق نفســـه .بعدها لجأ الى قلعة آشـــور القريبة من النهر ليحتمي بها. في القلعة وجد مخلف نمر الفلســـطيني الذي هو الاخر ترك فلســـطين بســـب

الاضطهاد والعنف الذي يمارسه الصهاينة ومن تحالف معهم ضد الشعب الفلسطيني، فتعلق احدهما بالآخر ويعيشان سوية حتى ذهابهما الى الجبهة. الا ان الراوي في سرده للأحداث لم يراع الترتيب المنطقي للأحداث بحسب تسلسلها الزمني، فخطوبة ممدوح لحسنه على الاقل ومن ثم زواجه غير المكتمل هي من الاحداث الاخيرة طبقا لوقوعها في الزمن ،فتكون في السرد منطلق الحدث الروائي ،ثم تندفع الاحداث دونما ترتيب ،فيأتي لقاء احمد بابنة المختار واستغلاله لعرس اخيها ممدوح وانشغال الاهل والناس جميعا بالعرس، ثم يقتادها الى الحقل بعيدا عن البيت والناس الحضور ....فالعلاقة بينهما قديمة وسابقة ليوم العرس ولم تكن وليدة اللحظة ،ليأتي مخلف النايف من العسكرية وفي نيته طلب يد حسنة ،التي اتفق معها على الزواج وله عدة لقاءات ليليه سالفة معها. فعلاقته بها قديمة ايضا، وهي سابقة لنقطة انطلاق الحدث الروائي والتي تمثلت بزواج ابن المختار من حسنه عشيقة مخلف النايف، لتأخذ الاحداث بعدها بالتتابع المتسلسل بعد ان علم مخلف بهروب حسنه واغراق نفسها في النهر، ليهرب هو الاخر باتجاه النهر فيعبر النهر ومن ثم تستقر به الحال في قلعة آشور. فالأحداث متناثرة لا تعتمد السببية في تتابعها ذا ان الحدث السابق لم يكن سببا للاحق، بل ظهرت النتائج قبل الاسباب، وما غرق حسنه الا نتيجة حتمية بسبب زواجها بالإكراه من غير حبيبها مخلف النايف الذي كان بينهما عهد واتفاق على الزواج.

2- الشخصية وانماطها.

الشخصية: تعد الشخصية في العمل الروائي ركنا مهما، وواحدا من عناصره الاساسية التي تتجلى عبر افعالها الاحداث وتتضح الافكار وتخلق في شبكة علاقاتها حياة خاصة تكون هنا مادة العمل ولولا وجودها لا نتفى السرد ولا نعدمت الموضوعات التي تتحدث عنها الافعال[13]،فالشخصية تقع في صميم الوجود الروائي ،وهي اشبه ما تكون بقلب السرد النابض وتتقاطع عندها العناصر الشكلية كافة بما فيها الاحداثيات الزمانية والمكانية[14].

تختلف الشخصيات فيما بينها بحسب تفاعلها ودورها في الصراع، فمنها ما يقوم بدور رئيس، واخرى تقوم بدور ثانوي، ومن هذه الشخصيات ما يتغير فكريا وانفعاليا فيطلق على تسميتها بالنامية، في حين اخرى تلازم حالة واحدة فلا تتغير وتسمى بالمسطحة او الثابتة.

- انماط الشخصية.

اولا- الشخصيات الرئيسة :

وهي الشخصيات التي تقود الفعل وتدفعه الى امام [15]،اذ انها تقوم بدور رئيس ، وتكون قوة الاحداث وحركة الصراع مركزة عليها ،فهي نقطة ارتكازية في البنية الروائية ،ومنها تنطلق الفعاليات المختلفة ،اذ يتجلى دورها في اثراء الحدث ونمو الفكرة وتدعيمها[16].

ومن الشخصيات الرئيسة في هذه الرواية شخصية المختار عطية السلمان، تطالعنا هذه الشخصية مع انطلاق سرد الاحداث في الجزء الاول، وهذه الشخصية ذات دور فاعل في سير الاحداث وحركة الصراع ،ويستمر تأثيرها على حركة وافعال بعض الشخصيات حتى بعد غيابها عن حركة السرد وتنامي الاحداث ،اذ كثير من الاحداث تأتي بسببها ،وكثير من النتائج السلبية جاءت من جراء اخطائها .فالمختار عطية السلمان شخصية ذات بعد اجتماعي سلطوي ،فهو يرمز الى الرجل الذي يمسك بكافة مقاليد المسؤولية لا بناء القرية . فلا يحق لأي شخص من ابناء القرية ان يقوم بأي عمل الا بعلمه، وبمباركته او من عدمها. فهو الرجل الاوحد، وهو المختار والمسؤول عن كل شيء في القرية، زواج، طلاق، بيع محصول، شراء حاجة، امور تجنيد ....الخ .

يقول الراوي:((كل شيء في هذه القرية مرتبط بالمختار .المحاصيل تجمع ثم ينزلها للسوق المختار .وكل عقود الزواج لا تم الا بموافقته .بل والطلاق أيضا وحتى الجنود مسؤول عنهم المختار عطية السلمان . يمتلك سجلا يحوي كل اسماء ابناء القرية ومواليدهم، فالذي يحين موعد خدمته العسكرية يبلغه المختار، ويأخذه للتجنيد في القضاء..)) ([17]). فالمختار رجل متسلط على رقاب سكان القرية ولا يستطيع اي احد مخالفته، او عصيانه، واذا ما اراد امرا او طلب شيئا لا يستطيع اي احد رد طلبه. فهو يشكل محور استقطاب الاحداث، ومنطلق سيرها. اذ تبدأ الاحداث بدعوته من خلال المسجد الصغير في وسط القرية ابناء القرية كافة لحضور حفل زفاف ولده ممدوح في اليوم الثاني وحضور الوليمة المقامة بهذه المناسبة. يقول الراوي :((اسمع صوتا ينادي من المسجد لكني لا افهم ما يقول .....اركض مسرعا نحو المسجد الصغير الذي لم يكن ليختلف عن بيوت القرية ...يتكرر الصوت ...يا ابناء القرية ،انتم مدعوون غدا جميعا ، رجالكم ونسائكم الى بيت المختار عطية السلمان .لقد ذبح ثورا .وهو يدعوكم جميعا لتحضروا حفل زواج ولده ممدوح..))[(18)]. فالمختار قراره قائم ومنفذ على الجميع من دون اي نقاش ، فدعوته لأبناء القرية لا ترد ،تنفذ ويحضر الجميع محبين لهذه الدعوة ام مرغمين عليها ،مع العلم ان اكثر المدعوين لا يعرف ممن يتزوج ابنه ممدوح ،فالأمر محدود واشبه بالفوري ولا احد لديه تواصل مع المختار ويعلم بالتفاصيل .فالمختار قراراته فردية ،ولا يعلم احدا بها ،وهو عندما قرر ان يزوج ابنه ممدوح قرر مع نفسه ،فلم يستشر حتى ابنه ((ممدوح)) ولم يعط اهل البنت فرصة او مهلة ،بل ربما لا يسمح لهم بأخذ رأي ابنتهم .فهو رجل لا يناقش ما يريده ينفذ ،وهو امر قد يكون جائزا في امور الحياة العامة ، لكن في امور الزواج فهذا غير ممكن مطلقا ، والنتائج ستكون سلبية لا محال ، وهو ما ستؤول اليه الاحداث الروائية في النهاية .في اليوم الثاني بعد التبليغ بالدعوة وهو ليلة العرس شرع ابناء القرية نساء ورجالا واطفالا يتوافدون الى بيت المختار ،فالجميع لابد من ان يقدموا المساعدة ،والمشاركة في تهيئة متطلبات العرس والوليمة .

يقول الراوي :((أمتلأ الحوش بالجالســين من رجال القرية .كانت معدهم فارغة ،فهم ينتظرون الثريد ينتظرون لحم الثور .لقد ملأت رئاتهم رائحة اللحم المطبوخ وهم يرون القدور تفور .فوق النار في احدى زوايا الحوش .ويتصــاعد من غليوناتهم ابخرة ودخان التبغ الرطب الرخيص الثمن ...يأتي بالطعام كثير من الشــباب يتراكضــون وكل واحد منهم يحمل ((صــينية)) مليئة بالخبز والمرق واللحم وتوضــع بانتظام امام الرجال لا يقوم احد منهم على الطعام الذي امامه ....الى أن يأمرهم المختار ...))[19]. ثم يعمد الراوي الى تقديم وصـف للمختار عطية السـلمان، فضـلا عن اعطاء بعض المعلومات عن حياته الشــخصــية والاجتماعية. يقول الراوي:((عطية الســلمان صــاحب اكبر شــارب في القرية واطول ســبحة ،له عشــرة اولاد ،وبنت واحدة يقال عنه أنه يكره البنات كثيرا ...فاغلب بناته يمتن بعد الولادة ولا احد يعرف السبب ..الا هذه البنت فقد كانت أمها مهجورة عند اهلها الى ان كبرت واصــبح عمرها خمس ســنوات وســماها عند ذلك ((وحيدة)) .....عطية السلمان متزوج من ثلاث نساء ،الاولى ابنة عمه، وهي الكبيرة والثانية كردية جاء بها من الشــمال قبل عشــرين عاما لا احد يعرف اهلها بل وحتى موطنها بالضــبط ، اما الثالثة وهي اصـغرهن فهي بنت احد الفلاحين في القرية ،تزوجها عندما توفي والدها بإحدى الصـواعق الرعدية التي احرقت بيتهما ليلا فلم تنج الا هي ،فتزوجها رغم أن الشــائعات تقول انها كانت تحب احد اولاده...))[20].فالراوي قدم بعض المعلومات عن حياة المختار، وعن حبه للتســلط ولكل ما من شــأنه يعضــد ذلك التســلط، وكذلك فهو لا يحب من الذرية الا الذكور، فهم في رايه يســاندونه ويعززون قوته وهيمنته على القرية وضــد المخاطر الاخرى. فهو لا يزال متمســكا ومؤمنا بقيم الجاهلية، وحتى الراوي يوحي بانه ربما كان يوئد البنات، فبناته توفين جميعا اللاتي ولدن في بيته، الا وحيدة التي ولدتها امها في بيت اهلها عندما كانت مهجورة، ولم تعود الام وابنتها وحيدة الى بيت المختار الا بعدما كبرت وحيدة والا ربما كانت لم تكتب لها الحياة. وحيدة الان في الحاضـر السـردي شـابة جميلة، يحبها احمد وهي تحبه لكن احمد لا يسـتطيع مفاتحة المختار لطلب يدها، فهو معدوم الحال. يســتغل احمد ووحيدة ظروف العرس للقاء بعضــهما يتبادلان الحديث والآراء ويطفئان بعض الشيء من نار شوقهما.

يقول الراوي:((انزويا بعيدا عن أعين المحتفلين بـالعرس ،ودخلا في زريبـة الابقـار .خمس ابقار تضطجع وتجتر طعامها وانفاسها منتظمة ...سحبها من يدها الدافئة وقف أمامها .لا شيء سوى البقر الغبي الذي لا يعرف الحب ..دنا وجهه من وجهها ،احاط خصرها بيديه – التصق بها .التهم شفتيها وغابا صارا كتلة واحدة ،قبل نهداها بعثر ضفائرها وغرس رأسه في شعرها ...تزيحه عنها .ينظر اليها .دموع تنهمر من عينيها .يقبل يدها ..))[21].

داخل حوش المختار تبدأ مراسيم حفل الزفاف بأطلاق النار وتعالي الزغاريد وتبدأ الدبكة والغناء بعد وصول العريسين الى غرفتهما المخصصة. يستغل احمد ووحيدة ظروف العرس وانشغال الناس بالفرح فيخرجان من زريبة الابقار الى الحقل القريب من القرية بعيدا عن جمهور العرس، وخوفا من عيونهم وليأخذا راحتهما التامة هناك. وبينما كانا يمارسان طقوسهما الخاصة بهما وحيدان في الحقل يفاجآن بمطاردة ممدوح لعريسته ومتجهان صوب النهر. يستغرب احمد ووحيدة من الامر وعلى السرعة يعودان الى البيت غلسة. توقف وحيدة الدبكة والفرح الذي كان مستمرا وتبلغ والدها بما فعلته العروسة وهروبها باتجاه النهر. يخرج المختار وجمهور الحضور باتجاه النهر مسرعين وهم في غاية الاستغراب والانزعاج.

يقول الراوي:((ينطلق جيش القرويين .نساء وشيوخ ورجال وفتيان يتقدمهم المختار راكضين عبرا السهل .وكل يطلق نارا من بندقيته .كأنهم في هجوم .واصواتهم تتداخل فيما بينها لا يفهم ما تقول .الا كلمة الحقوها .الحقوا الهاربة المجنونة ...يتراكض الناس نحو الغرب نحو النهر .باحثين عن العروسين والكلاب الكثيرة تعدو مادة السنتها مع الراكضين ،لا تعرف ماذا يروم هذا الجمع من الزاحفين . من الراكضين بلهفة ووجل.. كل شيء خرج عن المألوف في هذه القرية، الكل يزحف غربا، الكل يخلي القرية. لحظات واصبحت القرية مهجورة خالية من الناس وكأنها بلا سكان ....)) [(22)].

وتنتهي الاحداث بأقدام العروسة (حسنه)التي لم يسمها الراوي في بداية الاحداث بإغراق نفسها والخلاص من هذه الحياة. بانتهاء حياة العروسة (حسنه) تنتهي مشاركة المختار في الاحداث السردية ،الا ان تأثيره الخفي والفعلي يبقى مستمرا يدفع الوقائع السردية الى النمو والتمحور حول مسار سردي يقود الاحداث بفعل متنامي الى نهاية الاحداث الروائية .اذ يكشف السرد من خلال استرجاع احدى الشخصيات المقاتلة الموجودة في جبهة القتال انه يحب حسنه وانها تحبه وبينهما لقاءات ليلية وسريه كثيرة، وهما على موعد للزواج في اقرب اجازة لهذه المقاتل .بعدها يعود هذه المقاتل (وهو مخلف النايف) الى البيت وكل امله انه يحقق حلمه بالزواج من حبيبته ، الا انه في البيت يفاجأ بالذي جرى لحسنه ،ثم ادرك جيدا ان اقدام حسنه على اغراق نفسها هو وفاء منها له ، وانها زوجت جبرا لابن المختار بسبب تسلط المختار الذي لن يسمح لا لحسنه ولا لأهلها بالتشاور وابداء الرأي بالموافقة للزواج من ابنه ممدوح من عدمها ، فحسنه لم تجد من حل الا انهاء حياتها وعملية الزواج برمتها بإغراق نفسها .المقاتل (مخلف النايف)الذي عاد من الجبهة وفي ذهنه مشروع الزواج من حسنه التي تمتد علاقتهما الى شهور عدة ،ما ان وصل البيت وعلم بالذي جرى لحسنه(الزواج ،والانتحار)حتى ثارت ثائرته وهرب من البيت بملابسه العسكرية وسلاحه وهجر القرية، فراح يقود الاحداث الروائية الى النهاية ،ولا سيما بعد

هروبه ولجوئه الى قلعة آشور وما يواجهه هناك من احداث مختلفة. فشخصية المختار هي محور انطلاق الاحداث وملتقى التفاعل والصراع مع الشخصيات الاخرى في الرواية. ومن الشخصيات الرئيسة الاخرى في الرواية شخصية مخلف النايف المقاتل العسكري في ساحة الحرب في قاطع السليمانية ،وهو احد ابناء قرية المختار عطية السلمان .يقدم الراوي بعض الوصف والمعلومات عن مخلف النايف .يقول الراوي :((مخلف النايف الذي كره الحرب ،القروي الذي يمقت القيود والجلوس ساعات بلا حركة ،الاسمر الوجه، الطويل، الجعد الشعر ،الذي لم يحصل الا على الدراسة المتوسطة قضاها في المدينة الصغيرة القريبة من قريته ثم التحق بالجيش لحاجته المادية وفقره، مخلف النايف الاعزب المحب للكتب ...المطالع بنهم.....المؤمن بالفطرة ،الملحد ،المحب ،الكاره ،الصلب ،الضعيف ،مخلف النايف مجموعة تناقضات ورثها عن اجداده عن بيئته في قريته الشمالية القريبة من جبل مكحول ...))[23].يواجه مخلف النايف في واقعه السردي ساحة المعركة في منطقة جبلية ظروفا شتى ،من البرد والجوع والقصف المعادي المستمر .يكلف مخلف بواجبات ودوريات ليلية عديدة يتسلل الى عمق الارض الحرام المقابلة لمواضعهم ،ويقترب من مواضع العدو في اكثر الدوريات ، يعيش في الملاجئ يشمئز من الحياة ، يمقتها ،يبحث عن السلم والامان ، يكره الحرب ويكشف عن موقفه الرافض لها . يقول الراوي مخلف النايف: ((الحرب أن يلعب الانسان بالنار أن يغذيها بالأجساد، ان يفقد الناس الأمان ، تسلبهم حريتهم ،تنزل دموعهم ،تخيفهم ،ترعبهم ....الحرب هي ان تفقد عقلك ،تصبح مجرما .سيل من الدم لا ينقطع وبركان من الدمار والتحطيم لا يتوقف .الحرب لغة المجانين في زمن السلم .طريقة الوحوش الوحيدة للتفاهم .الحرب فكرة محتقرة عند العقلاء واخر طريق يسلك لأجل السلم ،لأجل الحرية....))[24].

فمخلف النايف يكشف عن موقفه الرافض للواقع المعاش واقع الحرب ،فهو انسان مسالم يحب السلم والسلام ،وهو الآن بمثابة الشخصية المغتربة ،التي تبحث عن واقع معين يشدها وترتبط فيه لما يكتنفه من خصال وأهداف ومعاني إنسانية من شأنها ان تعطي لونا متفردا واصيلا لحياتها .فمخلف يحس انه مختلف عن الاخرين من حوله ،فهو يمتلك من الانسانية ورهافة الحس وشعرية الذات تجعله غير قادر على الانسجام مع واقع الحرب وايقاعها اليومي المرير .يعيش مخلف النايف واقع الحرب بظروفها المختلفة رغما عنه ،فهو لا يحب الحرب ولا العسكر ،لكنه تطوع للجيش مضطرا بسبب تردي حالته المادية ،وضنك العيش الذي عاشه هو وعائلته في القرية ،فهو ترك الدراسة وضحى بمستقبله وحريته من اجل سد رمق عائلته .في ساحة المعركة يعيش مخلف النايف قسوة الحرب وظروفها العصيبة ،ويواجه مخاطر جمة ،قصف مستمر على الملاجئ ودوريات ليلية كثيرة للعدو ،فضلا عن ذلك وعورة الارض فهو في منطقه جبلية (قاطع

السـليمانية)ويعيش تحت قسـوة البرد والثلوج وكثرة الامطار ،وهو يحتمي في الملاجئ التي لا تصمد احيانا امام هول الظروف الجوية وتقلباتها المختلفة .يقول الراوي :((الملجأ مستطيل الشكل محفور في الصـخور وتحيط به اكياس من التراب .....الملجأ تحكمه الفوضـى .ويسـوده الملل .اغطية متسـخة. جرائد قديمة، دواوين شـعرية، مجلات نسـائية، وبعض الروايات...))[25]. يكلف مخلف النايف مع بعض رفاقه بواجبات ودوريات متعددة ينفذ الكثير منها، وتحيل ظروف مختلفة دون تنفيذ او اكمال بعضـها الآخر ... وتستمر الاحداث بالتنامي في الواقع السردي وهي تتمحور حول مخلف النايف حتى نهاية الحدث الروائي ،اذ تتسـع الاحداث ويتفاعل مخلف مع شـخصـيات اخرى ،اذ يكلف مخلف مع احد رفاقه وهو المقاتل خلدون بدورية ليلية مهمتها تجوب الارض الحرام، وتقترب من مواضـع العدو للاسـتطلاع وجمع المعلومات عنه ومعرفة امكانياته المادية والمعنوية ....يقول الراوي: ((يندفع مخلف النايف وخلدون كل يحمل سلاحه وجهاز ارسال لا سـلكي بيد خلدون. عليهم أن يعرفوا مواقع العدو الذي أمامهم وتحركاته .مواقع ضـعفه .اماكن قوتـه .ثم يعودوا قبل الفجر والا حصـدتهم نيران العدو ....الليل مظلم ،لكنهم تعودوا الظلمة ،خبروها ..قمم الجبال الثلجية واضـحة الرؤية .لكن الظلام في الاعماق في الاودية .يسـيران بسـرعة فلا الغام امامهم والمسـافة طويلة .مخافة ان يسـتدركهما الوقت .....))[26].ينفذ رجال الدورية مهمتهم في ليل مظلم ،وهم يتسـلقون قمم الجبال وينحدرون في بطون الاودية ،ويقاسـون شدة برد الثلوج المتراكم في سفوح الجبال وما لحق بهم من التعب الشديد ،فالجبال عالية والسفوح وعرة بسبب كثرة الصخور والاشجار المختلفة ،اضافة الى ان مسافة العدو ليست بقريبة .يجبرهم التعب على الجلوس متقابلين قبل وصول الهدف ،ثم يفاجآن بوقع خطى دورية للعدو تقترب منهما ،يتهيئان لها يصـيح احدهم بها ان تتوقف فيهرب افراد الدورية، تطلق عليهم النار ينجو البعض ويسقط البعض الاخر قتلى ،ويسلم احدهم ثم يتضح بعد القبض عليه انه جريح .يستعطف الاسير الجريح مخلف وزميله خلدون – وباللغة العربية– طالبا العفو والاصـفاح عنه، مبينا انه اب لمجموعة اطفال جميعهم قاصرين ،فتتبري في ذات مخلف وزميله المروءة العربية وتتجلى فيهم قيم الرجولة والشهامة التي تسري في عروقهم، وهي تعبق بخصال الاسلام وعظمة صفة العفو عند المقدرة، فيتفقان على اطلاق سـراحه اكراما منهم اولا للعربية التي تكلم بها، وثانيا ترحما على عائلته واطفاله القاصـرين ؛بعدها يعود مخلف وخلدون الى وحدتهما ،فهما لا يسـتطيعان التقدم ؛ لان دوريتهم اصـطدمت بدورية للعدو وكشـف امرها .اثناء العودة يواجهان عاصـفة ثلجية وكتلة هوائية باردة راحت تعيق تقدمهم ،يسـيران بقوة ،يفقد احدهما الاخر ،يتأخر مخلف بالمشـيء عن زميله بسبب شدة البرد والتعب الذي لحق به ،يواصل خلدون المشي وهو يجمع كل قواه للتقدم الى امام باتجاه وحدته العسكرية ،تشتد العاصفة الثلجية قسوة ،يستنفر مخلف ما بقي لديه من القوة

محاولا السير ،مقتفيا طريق خلدون ثم راح ينادي على خلدون آملا ان يشد كل منهما ازر صاحبه والصمود امام هول العاصفة الثلجية التي اخذت تزداد كثافة وانهمارا ،وبينما كان يواصل مخلف السير المتثاقل الذي طال بعض الوقت فاذا بخلدون جثة هامدة ملقية على الارض وقد غطاه الثلج .يتوقف عنده قليلا ثم يحمل الجثة الى اشجار قريبة منه لتسهيل مهمة الدورية التي ستكلف بإخلائه ،ثم جلس قربه بعض الشئ فتثير مرارة حاضره السردي والآمه حساسية مخلف وعالمه الداخلي وهو وحده جالس في العراء ومحاط بمخاطر جمة ،فتعود به الذاكرة الى الوراء هربا من الواقع المعاش ...الى القرية ،دفئها ،وحنانها ،امنها وجمالها ،وبساطة الحياة فيها ،ثم تجره الذاكرة بعيدا ..فيتذكر حبيبته حسنه فيكشف لنا الراوي العليم عن تفاصيل اخر لقاء ليلي جرى له معها، وانه على موعد واتفاق بالزواج منها في اقرب اجازة له ،ثم يقطع مخلف النايف تذكره الذي شغل مساحة لا بأس فيها ،وهو يدور حول حياة القرية ولقائه الاخير بحسنه ،ليواصل بعده السير باتجاه الوحدة ،فتكلل جهوده المنهكة بنجاح اذ يتمكن من الوصول الى وحدته بسلام متعب ومنهك وفاقد لأكثر قواه ،فيحتفى به كثيرا، اذ ان وحدته وبسبب ظروف العاصفة والمخاطر الاخرى وتأخره كثيرا عدته في عداء الشهداء والمفقودين. يخبر عن وفاة زميله خلدون بسبب البرد، وعن مكان تأمين جثته، يكرم بإجازة لعدة ايام، يودع زملاءه ويخبرهم بانه سيتزوج في هذه الاجازة. فهو في ذهنه موعد مع حبيبته حسنه .ينقل بطائرة من مكانه الى مطار السليمانية ،ينزل في المطار ثم يذهب الى اسواق مدينة السليمانية ،يتبضع حاجيات مختلفة وكل ما يتطلبه العرس ،من عطور وحلويات وبعض الملابس فهو في ذهنه مقدم على الزواج... يصل البيت يحتفل به كثيرا ،ويلتف حوله اكثر ابناء القرية ،يوصي امه بالمحافظة على العطور الذي جلبه انه لعرسه الذي ينوي قيامه في اجازته هذه، تفرح الام ،ثم تسأله ممن يرغب الزواج ،فيخبرها انه من حسنه ،تعبس الام وتنسحب منه ،فهو لم يعلم بالذي جرى لحسنه بعد التحاقه بالعسكرية ،تقترب منه عجوز من بين النساء اللاتي جئن يشاركن اهله بفرحة مقدمه من الجبهة ،وتخبره بحادثة حسنه ،بعد زواجها من ابن المختار ،فتثار ثائرته ويخرج من البيت بملابسه العسكرية وسلاحه هاربا الى النهر، فيعبره لتستقر به الحال في الضفة الاخرى في قلعة آشور ،اذ يجد هناك لائذا فيها نمر الفلسطيني ،وبعد تعارفهما يعيشان سوية. ثم تتسع رقعة الاحداث وتتأزم شدة الصراع وهي تتمحور حول مخلف النايف ((الشخصية الرئيسة)) الذي يقوم بالأفعال المتواصلة والمتنامية والى نهاية الحدث الروائي. ثم يرصد الراوي مشاعر هذه الشخصية، ويوضح حالتها النفسية عبر وصفها الداخلي والخارجي مبينا هواجسها واراءها تجاه نفسها وتجاه العالم من حولها.

ثانيا- الشخصيات الثانوية:

وهي الشخصيات التي تساعد الشخصية الرئيسة في تحريك الاحداث وتوجيه الحبكة الروائية نحو مناقشة المواضيع المطروحة، وتؤدي وظيفة معينة عبر التأثير في الحدث وتعزيزه وتعميق ابعاده ودفعه الى الامام، وفي القاء الضوء على الشخصيات الرئيسة [27].

تحفل الاحداث الروائية في رواية صدى مكحول بشخصية ثانوية واحدة، وهي شخصية (نمر الفلسطيني) وهذه الشخصية تساهم مساهمة فعالة في دفع الحدث الى امام في نوع من المؤازرة مع الشخصية الرئيسة (مخلف النايف). اذ تتكشف هذه الشخصية في الصراع بعد اللقاء الذي حصل لها مع مخلف النايف في قلعة آشور بعدما هجر قريته، وهرب منها ولجأ الى قلعة آشور فوجد (نمر الفلسطيني) امامه مختبأ فيها. وشخصية نمر الفلسطيني ذات بعد مرجعي واقعي، وهو الواقع الفلسطيني، ويتجلى ذلك اولا، من اسم الشخصية وانتسابها (الفلسطيني)، وكذلك ايضا تتكشف هذه الشخصية، هويتها وجذور انتمائها، من خلال الفرصة التي منحها لها الكاتب لتقديم نفسها وبطريقة مباشرة للشخصية الرئيسة (مخلف النايف) بعدما احتضنتهما القلعة وجلسا سوية ثم اخذ يتعارفان. يقول الراوي نمر الفلسطيني:((انا نمر بن سالم ،كان جدي احد جنود الاتراك .من مدينة حيفا.لم ار عيون جدي لكن سمعت الكثير عنه ،قاتل الانكليز والفرنسين ببسالة ،لا حبا للأتراك بل خوفا على دينه الذي كان متمسكا به كما يقال .لقد انسحب مع جيوش الاتراك المنهزمة امام الانكليز وحلفائهم الى تركيا ،واستقر في اسطنبول .شهد سقوطها بيد الحلفاء ثم اسر واقتيد الى بريطانيا وانقطعت اخباره عنا .وبعد سنين عاد الى اهله وهو منهك القوى ،لا يتكلم العربية الا بصعوبة ، لولا صلاته وكثيرا من الآيات التي كان حافظا لها لفقد عربيته...))[28].ويطول سرد نمر الفلسطيني كثيرا ،وقد شغل مساحة كبيرة من مساحة النص الروائي ،وهو يكشف عن نفسه واظهار نوازعه وافكاره ،وهواجسه ،وعن انتمائه الحقيقي لذلك الواقع المؤلم الذي عاش مأساته من الظلم والتشرد ،وهو الواقع الفلسطيني ،فهو يحمل القضية الفلسطينية كجرح نازف في اعماقه ولا ينفصل عنها ،والكاتب في تقديمه لهذا الشخصية انما يميل الى جعل هذه الشخصية ممثلة للروح الوطنية والقومية في بساطتها وعفويتها، وهي تستمد من عمق الانتماء التاريخي والقومي اصالتها الانسانية والحضارية .فنمر الذي عاش معاناة شعب كامل مشرد بأطفاله ونسائه وشيوخه ،معاناة لم يشهد لها مثيل تاريخ الانسانية مطلقا ،ومع كل ذلك فنمر لم يستسلم على الرغم من انه بعيد عن ارض الوطن ،فهو الان في حاضره السردي بلا وطن ،بل بلا مكان ،لكنه يحمل الوطن في ضميره وعمق وجدانه ،ولم يستسلم ،وهو يروي المعاناة الفلسطينية التي عاشها ورأى ويلاتها بأم عينيه ،وعن كيفية وصوله الى العراق بعدما قطع الصحراء وعبر الحدود مع قوافل البدو الرحل وبدون جواز سفر حتى استقرت به الحال في قلعة آشور ،وهو الان في ضيافة الملك آشور

،يستمد قوته وعزمه من اجداده العظام ،من عمق انتمائه القومي والعروبي ،وهو في اول وصوله لقلعة آشور وجه خطابه المباشر للملك آشور بقوله:((ايها الجد ،ايها الأب الفاضل ،ايها الفارس ،الملك الصالح ...الا تركت فينا شيئا من خصالك ؟فلم تورثنا قوة الدف والعربة ،ورائحة المعدنوس ، وضخامة الثور المجنح ؟ايها الجد امنحنا الدولة الواحدة .اهدنا مكتبتك الكبرى ،اعطنا بعضا من حكمتك دلنا على عبادة اقوى الآله ،واجمل الآله ....آشور الفرس ينهضون ،اليهود يجتمعون من جديد، اورشليم صارت عاصمة البقالين والرعاة واللصوص في عهدك ،صارت ذئب يمزق جسدي وخنجر في خاصرتي .اورشليم ثعبان يلدغني كل يوم ،طاغية يهدم بيتي ،يسبي عرضي ،ويحرق زيتوني ..آشور.. فارس يقودها قمبيز الجديد، تدفع سما في طعامي تقتل زهرة كبدي ،تحرق يد ابنتي وولدي ،عام (612)يعود من جديد .في هذا القرن الغاضب علينا حد الموت ...آشور اكاد اكون اخر من يسكن هذه الارض ،اخر بشير في هذا الكون ،اخر شبح في هذه المقبرة ..! اشم رائحة الموتى يئنون حول قلعتك الكئيبة...))[29].فنمر الفلسطيني وهو يقف في رحاب الملك آشور ..في زقورته الحصين الحصين يتذكر بطولة اجداده العظام ،ويستقرى بعضا من صفحات تاريخهم المشرق ،محاولا ربط تاريخ الامس بالحاضر ،فعدو الامس هو نفسه عدو اليوم ،واذا كان العدو في الماضي فقط يأتيك مدججا بالسلام فهو اليوم يسخر كل امكاناته وطاقاته ويغزو بلاد العرب بطرق شتى ...فنمر يعش ظلم اعداء الامس ..اعداء اليوم الفرس ..اليهود وهو شاهد على معاناة شعب واجه الظلم والتشرد والاغتصاب ،فهو يروي قصصا وحكايات تطول كثيرا وتكشف عن التعاون الوطيد بين الفرس واليهود[30] وسعيهم الدائم لاغتصاب ارض العرب وانتهاك مقدساتهم .فنمر لم يتخل عن شعبه وعن وطنه ومقدساته ،وهو مؤمن تمام الايمان انه لا خيار امامهم الا المقاومة والصمود بوجه الظلم وطغاة العصر الحديث. يعيش نمر الفلسطيني في قلعة آشور مع مخلف النايف الذي هو الاخر هجر القرية الى هذا المكان بعد ضياع حسنه منه. فنمر ومخلف مضطهدان، كل من واقعه مع اختلاف الظروف والاسباب. بعدها يأخذان بالتخطيط لديمومة حياتهما واستمرار عيشهما ،فيقرران النزول الى الغابة المجاورة للبحث عن صيد ما لشوي لحمه وسد رمق الجوع الذي لحق بهما ....ويأخذ نمر الفلسطيني برفد ديمومة الحدث وتفاعله مع صراع الاحداث وتناميها الى امام ،وهو يساند الشخصية الرئيسة مخلف النايف بعد تعارفهما وقرارهما بالعيش سوية في رحاب الملك آشور .ويستمر الحدث بالتصاعد من خلال رفد ديمومة الحدث عن طريق التعارف والتعاون بين الشخصيتين الشخصية الثانوية نمر الفلسطيني ،والشخصية الرئيسة مخلف النايف وما ينجم من هذا اللقاء وهذا التعاون من افعال ...اذ جعل الكاتب من نمر الفلسطيني الشخصية الثانوية نافذة تكشف افعال الشخصية الرئيسة مخلف النايف ،وعن تنامي الاحداث نحو النهاية .يتمكن مخلف ونمر من صيد خنزير من الغابة التي قصدوها

،وعلى الرغم من ان لحمه محرم عليهما دينيا ،لكن لا حيلة لهما ،فهما مضـــطران غير باغيين ،فشويا لحمه واكلا منه حد التخمة .وما ان اكملا تناول طعامهما حتى مرت من فوقهما سرب من الطائرات يحلقن بطيران منخفض متجهات نحو الشرق فذكرت مخلف النايف بواجبه العسكري في جبهـة القتـال ،فقرر وعلى الفور العودة الى مكـانـه في الجبهـة والـدفـاع عن وطنـه ،وابى نمر الفلسطيني الا ان يرافقه ،فالعدو واحد ،وهو يهدد الجميع .

ثالثا– الشخصيات النامية.

وهي الشخصيات التي لا تظهر للقارئ دفعة واحدة، بل تتكشف شيئا فشيئا داخل النص الروائي، ويسـمى – رولان برونوف – هذه الشـخصـيات (بالخلق المدور) حيث يقول :((يمكن تحديد الخلق المدور بوساطة تعقيد الشخصية وقدرتها على مباغتنا بصورة مقنعة. وبعبارة اخرى فان الخلق المدور شخصية معقدة، متعددة الابعاد))[31].وكذلك تسمى بالشخصيات الدينامية وهي التي ((تمتاز بالتحولات المفاجئة التي تطرأ عليها داخل البنية الحكائية الواحدة))[32].

شخصية (حسنه) من الشخصيات النامية ،يقدمها السرد ،اولا من خلال استرجاع المقاتل مخلف النايف وهو في الجبهة ،وحاله تذكره لقريته البعيدة الامنة ،وحبه لها ،ومن ثم للحبيبة فيها (حســـنه) ،بعدما حفزت ذاكرته هول الظروف المحيطة به ،وهو يقوم بتنفيذ دورية على العدو في منطقة جبلية ،في ليل مظلم ،وشـــديد البرد .يقول الراوي : ((جالس تحت اشـــجار غطاها الثلج ،جالس لا يتحرك شعر بالأمان ولم يعد خائفا من القذائف ...يقف خلف الدار بجانب الشباك الذي يتوسـط غرفة حسـنه ...نائمة مطبقة جفونها على عينها ،وانفاسـها تشـهق وتزفر بهدوء ،ونهدان بارزان للأعلى كالقبب .شـعرها الاسـود مبعثر على الوسـادة .ويداها حمراء قاتمة بفعل الحناء .كم هي جميلة ورائعة ؟ حسنه في الليل شاحبة بعض الشيء على ضوء الفانوس الاحمر ...مد العصا من خلال الشـباك، وهو راجف خائف. ارتطم رأس العصـا بصـدرها تحت نهدها الايسـر. قفزت فزعة. ثم لملمت شـعرها الحقت ثوبها على جسدها الابيض المكتسي احمرارا ضوئيا من الفانوس. نظرت من الشـباك بخوف فقد كانت متوقعة القدوم ...))[33]. يكشـف اسـترجاع مخلف النايف انه يحب حسـنه، وانها تحبه، وانه سـبق وان جرى بينهما لقاءات مختلفة عديدة. هذا اللقاء بين حسـنه ومخلف هو اللقاء الاخير بينهما قبل ذهاب مخلف للجبهة. ويرتكز هذا اللقاء الذي يكشـــفه الراوي العليم من خلال اســـترجاع مخلف النايف على الحوار بين مخلف وحســـنه والذي يطول نوعا ما، وهو يكشف عن العلاقة الوطيدة بينهما، والتي تصل الى حد العشق ،فضلا عن الاتفاقات الاخرى. يقول الراوي:((– هذا انت ؟.

– نعم انا على الموعد. لم انم حتى الساعة.

.....

– ماذا تريد بالضبط يا مخلف ؟.

– اريد لقياك .اريد كلامك .اريد موعدك .

– سأخرج اليك ولكن سأعود بسرعة .

تخرج مسـرعة لكن خطاها خفيفة ،تتسـل من الباب كالأفعى لكي لا تراها امها المريضـة العجوز .....تقترب من مخلف النايف تسلم عليه ...ينزويا بالظل ومسك بيدها يقبل الايدي ...قائلا:

– سأسافر الى الجبهة غدا .

– متى ستعود؟.

– لا ادري .وباي صورة سأعود ؟.

– اتحبني ؟.

– لماذا اتيت في هذا الليل ان لم اكن كذلك .

.....

– وبقوة القروي وعنفوانه سحبها نحوه والتهم شفتها تدفعه بلطف قائلة:

– لم استيقظ لهذا يا مخلف. اريد ان اودعك ،اكلمك عن زواجنا.

– سأطلب يدك من ابيك بعد انتهاء الحرب.

– ولماذا انتهاء الحرب؟.

– لأني اريد ان اكون قربك دائما.

.....

– وان طالت الحرب كثيرا ؟.

– سينمو حبا اكثر .

.....

– وان تزوجت غيرك ؟.

– ارحل عن القرية ان بقيت حيا بعدك ((ويتابع))هل تفكرين بآخر غيري ؟.انا لا ألومك فقد اطلت عليك والشباب كثيرون هنا .

– لن اتزوج غيرك يا مخلف .مهما كان المقدم للاقتران بي))[34].

– ينتهي هذا اللقاء الليلي المتأخر بين مخلف وحسـنه على شـبه ابرام عهد بينهما ،فمخلف لم يتزوج الا منها ،وانها لن تقبل بالزواج الا منه ،وان مخلف سـيطلب يدها في اجازته القادمة وسـيقدم الغالي والنفيس من اجلها ،فهو سـيلتحق للجبهة في صـباح الغد ....بعدها يلتحق مخلف الى الجبهة ،وتبقى حسنه حبيسـة البيت ورهينة لقيم القرية وعاداتها المتوارثة كابر عن كابر ،والتي كثيرا ما لا تعطي حرية للبنت للأفصـاح عن رأيها في موضـوع الزواج .فالرأي الاول والاخير

محصـور بيد الاب وقد يكون احيانا يسـتشـر بعض الاخوان .فهم يعرفون ابناء القرية ،ايجابياتهم وسـلبياتهم ،واذا ما قنعوا بشـخص ما وانه لا شـائبة عليه ينتهي الامر .فكيف بوالد حسـنه اذا ما جاءه المختار عطية السلمان صاحب المكانة والشأن في القرية – وهو يطلب منه يد حسنه لابنه ممدوح ؟.فضـلا عن ان المختار له نفوذ في القرية ورجل متسلط ،ولا يسـتطيع اي من افراد القرية ارجاعه لأي طلب كان ،فكيف به واذا ما كان هو صـديق لوالد حسـنه ،اذ كثير ما يقضـي والد حسـنه جل وقته وسـمره عنده، لذلك عندما دعا المختار ابناء القرية لحضـور عرس ابنه (ممدوح) تفاجأوا اول الامر ،فالأمر لم يكن معلوما لاحد، ولا منتشـرا بين ابناء القرية ،وكأن الامر صـيغ بليل ،اي في احدى جلسـات والد حسـنه عند المختار وطلب منه المختار يد حسـنه لابنه ممدوح وتمت الموافقة.

يقول الراوي:((يتكرر الصـوت "يا ابناء القرية انتم مدعوون غدا جميعا ،رجالكم ونسـائكم الى بيت المختار عطية السـلمان .لقد ذبح ثورا وهو يدعوكم جميعا لتحضـروا حفل زواج ولده ممدوح". لكنه لم يقل ممن سـيتزوج ممدوح.....))[35]. يأتي اليوم الثاني ويبدأ التهيؤ والاسـتعداد لمراسيم العرس منذ ساعات الصباح .يلتف اكثر ابناء القرية حول المختار وابنه ممدوح لمساندتهم ومسـاعدتهم في اسـتحضـارات العرس ، وحضـور المأدبة الكبرى التي اقامها ،وربما لتجنب بعض سخط المختار وغضبه عليهم .اما حسنه التي صارت ضحية القيم الباليه المتمثلة بتسلط المختار وتجاهل الاب لها في عدم مشـورتها بالزواج من ممدوح ،فهي في ذمتها عهد وشـبه ميثاق بانها لم تكن لأي شـخص آخر بدلا من مخلف ،ذلك العهد الذي لا يعلمه الا هما الاثنان ،وليس بمقدورها ان تبيح به في ظل قيم وسلطة العشيرة، ولا يمكن ان يلغى ،وكيف يلغى ومخلف اختلى بها مرات ،واستباح شيئا من حرمتها ،فكيف ل(حسنه) في حاضرها السردي وهي لم تفاتح ،ولم يؤخذ رأيها بالزواج من ممدوح ،وما هو حلها وقرارها وهي لم يبق امامها الا اجزاء السـاعة وتكون بين يدي ممدوح ،ومخلف بعيد عنها في جبهات القتال ...؟. فشخصية حسنه تتكشف شيئا فشيئا، وهي في طريقها للنمو والتغيير مع تطورات الاحداث الروائية. حسنه وفي حاضرها السردي قطعت صلتها بمخلف النايف رغما عنها، وراحت الاحداث تدفعها باتجاه مرحلة العرس والزواج من ممدوح الذي كلفه مهرها الكثير. والكاتب يدفع الشـخصـية من موقف الى موقف آخر عن طريق نمو الحدث، حيث تنمو وتتكشـف تدريجيا، وحتى تصـل مرحلة العرس، ودخول حسـنه غرفة العريس. ليفاجأ بعدها المحتفلون اصـحاب الدبكة والفرح وبعض الحضـور من ابناء القرية الموجودين في حوش المختار بخبر هروب العروسة (حسنه)باتجاه النهر القريب، مع التأكيد على اصرارها على اغراق نفسها فيه والخلاص من هذه الحياة.

يقول الراوي :((يصـل المختار النهر اول الراكضـين ومعه عشـرات من الشـباب والرجال يحملون البنادق والعصي يريدون الظفر بالعروسة الهاربة ،بالشريرة التي قطعت الدبكة ،يا لمجنونة التي هربت من ممدوح ابن المختار ...يصلون الشاطئ ،يتراكم الواصلون على الشاطئ فلا شيء يوقف الزحف .سوى شـاطئ دجلة .يبدأ الراكضـون بالوصـول اغلبهم وقف عند الشـاطئ متطلعا مذهولا ..لا شـــيء ســـوى ممدوح مضـــطجعا على الرمال الرطبة المحصـــورة بين الماء والجرف وملابسـه تقطر ماءا وانفاسـه تشـق صـدره ...يتقدم منه ابوه وقد احيط بدائرة من الاجساد البشرية اللاهثة الوجلة المسـتغربة والكلاب الراكضـة اخذت تلعق الماء .والناس الذين لم يصـلوا مزدحمين على فتحة الجرف التي ينزلون منها على النهر ...حشـــد رهيب من الناس حول ممدوح وصـــمت مذهل بدأ يخيم على الجميع .وحزن عميق يتوغل في الانفس ...يقطع المختار الصـــمت الواجم ،والسكوت المخيف باصقا بوجه ممدوح وقائلا :بصوت مرتفع عنيف .

– اين العروس؟.

– غرقت في النهر))[36].

فحســـنه تأبى الزواج من غير مخلف أيا كان المتقدم ،ولو كلف ذلك حياتها .وهي التي عاهدت مخلف على الزواج منه بقيت امينة على عهدها وفية لخطيبها الذي لم تكن العلاقة معه سطحية ولا وليدة يوم وليلة ،الا ان المخبأ لها كان اعظم واكبر مما تتوقع ، وهي في هذه الحال لا تجد من بد الا الانتحار ،فليس لها من حل آخر قط ،اولا وفاء منها لحبيبها ،وثانيا حفاظا على نفسـها وسـمعتها .فهي لا تسـتطيع الزواج من اي احد في القرية ،وهي قريبة من انظار مخلف ابن القرية الذي لا بد ان يعود يوما من الجبهة الى القرية ،فكيف تراه وهي تشبك اصابع يدها بأصابع يد رجل آخر ؟.وهي التي لها معه عهد واتفاق بالزواج ،وسبق ان جرى بينهما لقاءات سرية ،فيها من الافعال والاقوال ما قد خرج عن المشـــروع ...فلم يبق امامها الا انهاء حياتها بالأقدام على الانتحار وطوي صـفحات هذا الملف الذي بات مليئا بالمصـائب والاحزان .....وبذلك يكتمل شكل الشـخصـية النامية ،بعدما حفل بتغير الاحداث السـردية التي كشـفت الأبعاد المختلفة للشـخصـية وتحولاتها المثيرة.

رابعا– الشخصيات المسطحة .

وهي الشـخصـيات التي تتصـف بحالة من الثبات والجمود خلال سـير الاحداث الروائية ((وهذه الشـخصـيات في ادق اشـكالها تدور حول فكرة او صـفة ..... ويمكن التعبير عنها بجملة واحدة)) ([37]. ومثل هذه الشـــخصـــيات يأتي بها الكاتب جاهزة في الرواية دون بذل اي جهد، اذ تدخل هذه الشخصيات الاحداث وتغادرها وهي بنفس الحال.

تعج هذه الرواية بعدد من الشخصيات المسطحة المختلفة ،وهي تأتي بأدوار بسيطة ثابتة لا تتغير، تضيء من جوانب الشخصيات الاخرى ولاسيما الرئيسة منها ،وقد تكون النامية ،وتعيننا على فهمها من خلال تفاعلها واحتكاكها بها .من هذه الشخصيات شخصية (وحيدة) ابنة المختار عطية السلمان ،وهذه الشخصية ثابتة تحمل طابعا واحدا لا يتغير ،والكاتب جاء بها ليكشف ظلم وتسلط الشخصية الرئيسة في الاحداث والدها المختار عطية السلمان .فوحيدة في عنفوان شبابها ،ويحبها احمد وهي تحبه ،ولكن لا يستطيع التقدم اليها خوفا من بطش ابيها المختار بل لا يستطيع حتى اللقاء بها ،الى ان حدث عرس اخيها ممدوح فاستغل احمد ظرف العرس واستطاع اللقاء بها .يقول الراوي :

((ينظر اليها .دموع تنهمر من عينيها .يقبل يدها قائلا :

– وحيدة ...سأتزوجك ..اقسم لك بذلك .

– وابي ؟.

– سيوافق .

– لا اظن ...ذلك...تنهدت واردفت قائلة .ماذا تملك حتى تتزوجني .الا تعرف مختاركم؟.

– املك حبي . وكتفي ...سأعمل المستحيل .

– ابي لا يهمه سوى المال .وانت لا تملك هذا ....هل تتصور ان ابي من الغباء بحيث يزوجني اياك ؟))[38].

وبانتهاء العرس ،ينتهي هذا اللقاء ،وهذا التحاور ،ويكون دور الشخصية (وحيدة)قد انتهى بل انقطع تماما عن بناء الاحداث .ومن الشخصيات الاخرى شخصية (احمد)حبيب وحيدة، والملاحظ على هذه الشخصية ،انه مختص بجانب واحد من دون ان يكون له دور في بناء الاحداث ،فهو يحب وحيدة ولا يستطيع التقدم اليها ،خوفا من بطش المختار كما تبين آنفا عند تناولنا شخصية وحيدة .فالكاتب جاء به عن طريق الحب والتعلق بالحبيبة (وحيدة)ابنة المختار ليكشف من خلالهما عن تسلط المختار وقسوته وجبروته ،ولاسيما بعد وقوف الحبيبين (احمد، ووحيدة)امام حيرة كبرى وهما متحابان ومتفاهمان ،واحمد لا يستطيع التقدم الى المختار لطلب يد وحيدة منه ،ووحيدة أيضا في حالة قلق اذا ما تقدم احمد الى ابيها لطلب يدها منه وانه سيعاند بها ويزوجها لابن عمها الاعرج ،والسبب لان احمد معدوم الحال ،والمختار لا يحب ولا يقرب منه الا الاغنياء واصحاب الاموال الطائلة .

ومن الشخصيات المسطحة الاخرى شخصية (حسان) ابو(المطبگ)، فهذه الشخصية ثابته بحكم مهنتها، فهي لا تتغير خلال الاحداث وهي قليلة التفاعل مع الشخصيات الاخرى ،وقد جيء بها كعامل مؤثر وفاعل لقيام الدبكة وخلق اجواء الفرح ،وبالتالي جذب اكثر ابناء القرية وشدهم

لبيت المختار تهيئة لأحداث سردية قادمة ،وهي الفزع والمطاردة وراء العروسة (حسنه)بعد هروبها من العريس ممدوح .يقول الراوي :

((يصيح المختار بصوت فرح جهور:

– اين حسان ابو (المطبگ)؟.

– انا هنا يا عم.

– تعال اسمعنا صوت (المطبگك).

– حاضر ...

ويبدأ نافخا بجوف مطبگه ومحركا اصـــابعه على فتحاته بمهارة عجيبة متنفســـا من خلاله...يجتمع حوله القرويون وتبدأ الدبكة ..والفتيات مرتديات اجمل ما عندهن من ثياب مزركشة ،ملونة بالوان صـــارخة ملطخة ايديهن بالحناء يدخلن الدبكة كل فتاة بين رجلين ،وصـــوت (المطبگ) لا ينقطع والدابكون لا تتوقف ضـربات ارجلهم على الارض الرطبة ،وايديهم متماسـكة واكتافهم متراصة ..))[39]. وشخصية حسان ابو(المطبگ)، وهي محور الدبكة ،اذ بدونها لا توجد دبكة ،وهي لا تظهر في الســـرد ســـوى مرة واحدة ،وقت قيام الدبكة ،وهي بذلك ينتهي دورها في الأحداث بانتهاء ليلة العرس وفعالية الدبكة ،وبعدها يختفي ظهورها من الســـرد نهائيا .وكذلك شخصية (ممدوح) من الشخصيات المسطحة ،الثابتة ،ودورها بسيط ومحدود ،اذ ينتهي دورها في ليلة العرس ،بل قبل اتمام تلك الليلة المقررة .فممدوح هو العريس ،والكاتب يسـعى الى هدف معين في اظهار هذه الشخصية ،ويبدو انه جعلها تكشف لنا عن جانب من شخصية حسنه (العروسة)، التي وقعت ضحية تسلط المختار ،فبسبب تسلط المختار ،واستغلاله لعلاقته مع والدها طلب يدها ،لابنـه ممدوح فوافق ،وهي تحب مخلف النايف وبينهما علاقة وطيدة ،ولقاءات عديدة ،وعندما شـــعرت انه لم يبق امامها من حيلة ولا من ســـبيل ســـوى الانتحار ،هربت ليلة العرس الى النهر واغرقت نفســـها فيه ،وبقي ممدوح ابن المختار وحيدا من دون ان يكمل ليلة زواجه معها ... يقول الراوي:((تصـــرخ وحيدة بقوة وتصـــيح ..اوقفوا الاحتفال لقد هربت العروس .لقد هربت ..هيا الحقوا بها .ممدوح يطاردها ، واجتازوا حقول القمح ...هيا .هيا. يقف العازفون والدباكة ويلفهم الصـــمت .كل يوشوش بأذن صاحبه .كادوا لا يصدقون ما تقوله ..ويصيحون بفم واحد.

– ماذا !هربت .هل جننت اتهرب من ممدوح ؟.

لقد هربت يا ناس هيا .هيا الحقوا بهما .

يخرج المختار من البيت مذعورا .يلتف حوله كل رجال ونسـاء القرية ويصـيحون بفم واحد هربت العروسة))[40]. وبهروب حسنه ،واقدامها على اغراق نفسها في النهر ،ينتهي دور شخصية ممدوح التي ترتكز على فكرة واحدة بعينها (عريس) لا غير ،ولا يعاود الســـرد الى ذكرها مرة ثانية

،فتكون بذلك شخصية مسطحة ،غير مفاجئة بأحداث متطورة أخرى .ومن الشخصيات الاخرى المسطحة عدد من الجنود ،وهذه الشخصيات ثابتة لا تتغير ،فهم مقاتلون لا غير ،والكاتب جاء بهم للكشف عن معاناة الشخصية الرئيسة مخلف النايف ،والاحداث الصعبة التي تواجهه في حياته العسكرية ،وهو يعيش ظروف الحرب وخطورة المكان (منطقة جبلية) ،فضلا عن مكابداته امام سطوة البرد وكثرة تساقط الثلوج. يقول الراوي:((ما في الملجأ مبعثر وغير منظم ..اربعة من رفاقه مضطجعين به .كلهم من صنف المشاة .من مناطق مختلفة من العراق ..خالد قناص غير ماهر ،لكنه شجاع وحذر ،وظافر صنفه قاذفة كان ماهرا ونادرا ما تخطئ اصابته .وخلدون وحيدر سلاحهم البندقية بالإضافة اليه ..))[41]. وهذه الشخصيات تبقى على حالة واحدة فلا تتطور ،ولا يعاود السرد الى ذكرها مرة ثانية، سوى خلدون منها اذ يكلف بواجب دورية مع الشخصية الرئيسة مخلف النايف ،وتصادفهم في العودة بعد تنفيذ الواجب عاصفة ثلجية فيهلك خلدون ،ويستمر مخلف النايف بالسير حتى الوصول الى الوحدة .وبعد حادث وفاة خلدون يختفي جميع المقاتلين من حركة السرد وتداعيات الاحداث ....ومن الشخصيات المسطحة الاخرى التي تطالعنا في الاحداث الروائية شخصية الاسير الايراني (قدوسي ولايتي)الذي تم القاء القبض عليه من قبل افراد الدورية مخلف النايف، وخلدون اثناء تنفيذهم الواجب، ثم اطلق سراحه، اكراما للغة التي تكلم بها معهم ،فهو يتكلم باللغة العربية، وكذلك ترحما وعطفا على عائلته.

يقول الراوي:((يمشيان نحو فوجهم والاسير بينهم ...أخذ يتلكأ بمشيه. سحباه .لكنه احذ يئن .بكى ثم جلس .وقال بالعربية :

– اني جريح .

نظر مخلف وخلدون بذهول .كل ينظر على وجه الاخر .

قال خلدون :

– يتكلم العربية أسيرنا !

تقدم مخلف منه متطلعا على وجهه .ملامح فارسية لا تمت الى السمار العربي بشيء ،وقف امامه .

– ما اسمك؟.

– قدوسي ولايتي.

– اين تعلمت العربية؟.

– في دول الخليج العربي ...!.

هز رأسه مخلف مميلا ببصره نحو خلدون ومبتسما بعض الشيء ....))[42].

وشخصية الاسير لا يعاود السرد الى ذكرها مرة ثانية ،فتكون بذلك شخصية مسطحة وغير مفاجئة ،اذ ان فعلها السردي محصور بين الموقفين المتصلين بها هما القاء القبض عليها ومن ثم اطلاق سراحها. ويبدو ان ظهورها في السرد ولا سيما العفو عنها واطلاق سراحها من قبل مخلف النايف وخلدون هو للكشف عن جانب الشخصية الرئيسة مخلف النايف وابراز بعده الاخلاقي – العروبي والقيم الانسانية النبيلة المتجذرة في اعماقه .ومن الشخصيات الاخرى شخصية ام مخلف النايف ،والعجوز التي زارتها لتبارك لها عودة مخلف من الجبهة سالما في الاجازة التي كان قد قرر فيها مع نفسه انه سيتزوج فيها .وهذان الشخصيتان (ام مخلف، والعجوز)لا يظهران سوى مرة واحدة في مقطع سردي بسيط ،اذ يظهران اثناء وصول مخلف البيت عائدا من الجبهة بعد غيابه في المعارك لفترة طويلة .والكاتب جاء بهما ليكشف لمخلف العائد من الجبهة وفي ذهنه قرار الزواج من حسنه ،ما حدث لحسنه بعد ذهابه للجبهة من امور وهي تزويجها بالإكراه من ممدوح ابن المختار، ومن ثم اقدامها على الانتحار من دون معرفة الأسباب.

يقول الراوي:((– حسنه سأخطبها اليوم واتزوجها غدا ....

تقف الام مذهولة .تتغير ملامح وجهها.. صامتة ،خائفة وسط وشوشة النساء الحاضرات .يتعالى الضجيج وهي صامتة لا تتكلم ..يتقدم نحوها .يقترب وجهه من وجهها ...قائلا :

– الا توافقي عليها ...انها حسنه..؟.

انسلت داخل بيتها دون ان تجيب بكلمة واحدة ...تغير الفرح الى صمت ووجوه يغطيها الحزن الثقيل الغامض يتعالى الضجيج النسائي حوله. والاطفال يتراكضون وراء امه يطمعون بالمزيد ...ينظر للنساء وجلات صامتات لا شيء في وجوههن يبشر بالخير ...تقترب منه عجوز بيضاء الشعر متجعدة الوجه صفراء اللون ،عيناها غائرتان في وجهها ...وقالت بعد ان قدمت فمها قرب اذنه : لقد غرقت حسنه في ليلة زفافها من ممدوح ابن المختار ..))[43].

وهاتان الشخصيتان يتسمان ببساطتهما السردية المتناهية ،ذلك انهما لا يغادران الصفة التي لازمتهن ابدا وهي محصورة فقط بالكشف والاخبار لمخلف النايف عن مصير حسنه. من الشخصيات المسطحة الاخرى شخصية البدوي.

يقول الراوي:((اسير وراء البدوي .وتكاد ارجلي تقفد توازنها من سرعتي وانا لا استطيع اللحاق به ..الصحراء والبدوي عاشقان لا يتفارقان .هي مقفرة كأحد الكواكب بلا البدوي ،والبدوي كالشجرة المقطوعة بلا صحراء ؛احدهما يكون الآخر انها الطبيعة الصعبة الجلفة الخشنة ،وهو الانسان الاصعب .القوي الارادة المتحدي لها ولجبروتها بسلاح هو قليل من التمر وخيمة من شعر الماعز ووبر الابل ..))[44].

الراوي هو نمر الفلسطيني ،وهو شخصية ثانوية موظفة في الاحداث الروائية ،وهو الذي اضطر على الخروج من فلسطين بسبب بطش المحتلين الصهاينة ،فقرر الهروب الى العراق عن طريق البدو ،فهم يعبرون الحدود بلا جواز سفر ،اذ ان لديهم معرفة بالطرق السرية والمناطق الخالية من نقاط المراقبة. فالرجل البدوي الذي سار وراءه نمر في الصحراء هو الذي اخذ بيد نمر الفلسطيني وجاء به من دمشق ،والى حلب ومن ثم دخلا سورية الى صحراء العراق ،بعدما ادعى له نمر في اول لقاء حصل بينهما في مرآب للسيارات في دمشق انه صياد نسور وانه يبحث عن بيئة صحراوية لممارسة مهنته .فتمسك به من حينها البدوي ،وراح يغدق عليه ويكرمه ،فأبناء الصحراء عامة والبدو خاصة محبين لمهنة الصيد. وهكذا تبقى شخصية الرجل البدوي متسمة بالبساطة السردية التي لا تذهب بها ابعد من حدود العلاقة بنمر الفلسطيني ،التي ينحصر موضوعها حول عملية ايصاله من دمشق الى الصحراء ،ومن ثم استضافته له في بيته ،وبعدها تهيئة له ادوات الصيد ظننا منه ان نمرا صياد حقيقي .ليأخذ بعدها نمر ادوات الصيد فعلا من بندقية وشباك ....الخ، ويتجه الى جهة معينة في عمق الصحراء ،وهو ماقت لنفسه ،نادم على ادعائه الذي اقنع به البدوي على انه صياد نسور !. ذلك ان النسور رمز الحرية والشموخ والاباء ،وهل يقبل على نفسه ان يصطاد او يقتل رمز الحرية ؟!.وهو الذي هجر وطنه بسبب فقدانه للحرية، وعاقد العزم على مواصلة الجهاد حتى من خارج الوطن من اجل تحرير الوطن وتحقيق الحرية والاستغلال لأبناء شعبه . بعدها يلقي بكل ادوات الصيد التي معه في ارض الصحراء ،ويتمسك بالبندقية منها فقط، وبدون ان يعلم صاحبه البدوي يقرر مواصلة التنقل والسير بحثا عن مكان اكثر استقرار ،ويمكنه من التواصل مع الاخرين من اجل ايصال صوت شعبه المغدور ..،ثم يلتحق بركب قافلة بدو اخرى مرت بالقرب منه ليصل بواسطتها الى قلعة آشور يستوطن فيها مع مخلف النايف.

يقول الراوي:((اشاهد قافلة من البدو قادمة في الطريق نحوي ....اقرر الرحيل معها. لقد تعودت الصحراء ألفتها أحببتها ،اصبحت بدويا....اعجبتني خصالهم ،فهم لا يسألون عن هدفي وغرضي ،عن مطلبي الا بعد وقت ...وصلت قربي الطلائع الاولى جمال تحمل الخيام الملفوفة ،وهي منهكة تعبة ،لا تتألم .....الرجال اغلبهم يسيرون على الاقدام .....اما النساء فعلى الجمال ،وهناك سيارتان قديمتان يحملن بعض الحاجيات وشيخهم وحوله نساء هرمات وشيوخ مسنين كل يرتدي سلاحه ...لحاهم سوداء ووجوههم ملساء صقيلة كوجوه النسور ...اقف على الطريق أأشر بيدي للسيارتين تتوقفان. يأمرني الشيخ ان اركب دون ان يسالني او ان اسأله..))[45]. وهذه الشخصيات البدوية التي ذكرها الراوي (رجال ،ونساء، شيخ)ثابته فلا تتطور؛ لان تفاعلها يبقى بسيطا ،لا يأتي بأية مفاجأة ،وهي تروى في مقطع سردي واحد ،اذ تدخل الحدث السردي ساعة

وصـولهم نمر الفلسـطيني في عمق الصـحراء، ليلتحق نمر بقافلتهم والتي تتجه نحو الشـرق لتحط رحالها في النهاية عند نهر دجلة قرب قلعة آشـــور ،فينزل ركب القافلة نحو ماء النهر يشـــربون ،ويغتسلون منه، لينتهي دورهم بعدها نهائيا من الاحداث .اما نمر فيودع افراد القافلة ويتجه صوب قلعة آشور القريبة منهم ، ليستمر بمواصلة افعاله السردية من هناك ،اذ يلتقي بمخلف النايف وتبدأ رحلتهما معا اذ يقودان الاحداث الى نهاية الحدث الروائي .وبعد هذه الوقفة مع الشـــخصـــيات المسطحة ،يمكن القول ان الشخصيات أيا كان شكلها السردي ودورها في الاحداث فهي لا تقل اهمية عن الشـــخصـــيات الاخرى، فهي كثيرا ما تكون اكثر دقة في التعبير عن المضـــمون الفني والبعد الاجتماعي الذي يقصده الروائي ،وقد تكون هذه الشخصيات هي تعبير روائي يعكس صوره الناس المنسيين في الحياة.....

3- الزمن.

حركتا الزمن .

1- الاسترجاع :

احداث ماضـية يتم اسـترجاعها الى الحاضـر .هذا ما يلجا اليه السـارد او الشـخصـية في عملية القص .لتنشـأ المفارقة الزمنية بين الماضـــي والحاضـــر ((فان كل عودة للماضـــي تشـــكل بالنسبة للسرد استذكارا يقوم به لماضيه الخاص ،ويحيلنا من خلاله على احداث سابقة عن النقطة التي وصـلتها القصـة))[46]. يقول الراوي:((احمد ابن مزارع معدم مات مذ كان صـغيرا لا يتجاوز عمره ثلاث ســنوات ،وليس له ســوى اخته التي كانت تصــغره بســنة. أما امه فقد قتلت بإحدى الغارات الايرانية على مدينة الموصل ،كان ذلك في بداية الحرب عندما كانت تبيع احد المحاصيل خفية عن عين المختار. لقد ماتت وهي تريد الحرية من قيود المختار الذي لا يســـمح لها ببيع محصـــولها وحدها . وحجته بذلك هو النقل الذي يكلف غالبا فجمع المحاصـــيل عنده اولا ثم نقلها للمدينة ،امه التي كانت تحلم تزوجه من بنت الحلال التي كان يهواها .لقد تعرضـــت امه لكل المسـاومات من المختار كم اراد ان يتزوجها ، رفضـت بإصـرار .سـاومها حتى على عيشـها لكي يجبرها على الرضـوخ لكنها رفضـت وصـمدت ،لقد كرهها المختار كرها شـديدا .اما والده فلم يره وحتى اذا راه فملامحه لا تحفظها الذاكرة ،لا يعرف عنه الا القليل .وكل ما يعرف عن ابيه انه لا يجالس المختار ابدا ،ولا يســـلم عليه ان مر بقربه .ولا يطلب منه اي حاجة قط مهما كانت هذه الحاجة ومهما كانت حاجته اليها ...وفي احدى السـنين شـب حريق في بيادر القمح التي يمتلكها المختار. اثيرت الشـــكوك والظنون أن ابا احمد هو الذي احرقها .لكن المختار لم يملك الدليل القاطع ليدين والده ويتهمه بالحريق...))[47]. وهذا الاســـترجاع جاء بطريقة الســـرد التقليدي ،من

خلال عودة الراوي الى الماضي المتعلق بكل من الشخصيات (ابو احمد، ام احمد)والمختار عطية السلمان والكشف عن كيف كانت طبيعة العلاقة بينهم .والراوي في استرجاعه هذا كشف عن حقائق واحداث ماضوية تضيء الراهن السردي، وتجيب على تساؤلات عدة لعل ابرزها التي تتعلق بأسباب قلق احمد حبيب (وحيدة) ابنة المختار من عدم موافقة المختار على تزويج وحيدة له اذا ما تقدم اليها .وكذلك قلق وحيدة نفسها حبيبة احمد وعدم قناعتها بموافقة والدها المختار على تزويجها لحبيبها احمد .فالراوي في عودته لماضي تلك الشخصيات كشف عن ابرز الحقائق التي تعزز الراهن السردي وتجلي كل ما يضمره المختار لأحمد ،او الصورة التي يكنها له ،وعن ماهية الاسباب ،وهو يصمت على احداث وقضايا ماضوية من شأنها تثير ضغينته للآخر في كل وقت .فهو المختار المحب للتسلط والطاعة العمياء ،فكيف به اذا ما كان يعصى من قبل والد احمد وطوال حياته ،ولا يطلب منه شيئا ،ولا يزوره ،ولا يطلب مشورته في اي امر ،بل ولا يلقي عليه حتى السلام اذا ما مر بقربه ،يضاف الى ذلك موقف ام احمد ولا سيما بعد وفاة (ابو احمد) التي كانت لا تستجيب لأوامره التي كان يفرضها على اهل القرية حول جمع المحصول الزراعي عنده لبيعه مجتمعا .فأم احمد كانت تبيع محصولها خفية بمفردها من دون تنفيذ لأوامر المختار .يضاف الى ذلك رفض ام احمد الزواج منه بعد وفاة زوجها ،بل رفضت حتى التقرب اليه ،وما سبب بيع محصولها لوحدها الا تخلصا منه وعدم رغبتها في التقرب منه. ومع كل هذا الماضي المليء بالكراهية والبغضاء بين الطرفين المختار عطية السلمان من جهة ،وابو احمد وام احمد من جهة اخرى ويأتي احمد في الحاضر السردي ،وبعد وفاة والده ووالدته ليطلب يد وحيدة ابنة المختار متناسيا ذلك الماضي القريب...المليء بكل اسباب القطيعة والبغضاء، وعدم الرغبة في التواصل بين ابيه وامه والطرف الآخر المختار.... وهو من الاسترجاعات الخارجية التي كانت علاقتها مباشرة بالحدث الذي استدعى هذا الاسترجاع ،فهو يحفز الحاضر السردي ويعزز تشكيله من خلال استدعاء تلك الاحداث من الماضي وتوظيفها لخدمة الراهن السردي . وقد يعمد الكاتب – احيانا – عند استعادة الماضي او استذكاره الى الاشارة اليه من خلال استخدام اللازمة السردية التي يلجأ اليها الكثير من الروائيين والقصاصين امثال: اذكر /تذكر /تذكرت / كنت... كان في الماضي ....الخ .يقول الراوي :((نظر للأمام ،ابعد قليلا ...القلعة تمتطي نهاية جبل مكول صامتة... تذكر حكاية المجنون الذي فيها ...لقد سمع بالمجنون الذي يسكن فيها .المجنون ذو الكلام الغريب الذي لا يفهمه ابناء القرى المحيطة بالقلعة ...لقد صار المجنون حديث اهل القرى التي على الجانب الآخر للنهر ..بدأوا يخيفون به اطفالهم في الليل عندما لا ينامون .المجنون الذي يسكن في القلعة الاثرية العائدة لأيام الآشوريين ...مشى مسرعا نحو القلعة .نحو المجنون ..صامتة من بعيد ...))[48]. يحتفظ الانسان بذكريات كثيرة ولا سيما اذا ما امتد به العمر ،فاذا ما

شـعر باي ضـغط في زمن الحاضـر ،فانه يلجأ الى الماضـي متقوقعا في عالمه الخاص ،محللا ومتدبرا لبعض الافعال او القضـايا منه مستعينا بكل ما من شـأنه يخفف سطوة الزمن عليه وقسوة ظروف الحياة الاخرى ...الراوي هو مخلف النايف هجر القرية عند عودته من الجبهة ومعرفته بمصير حبيبته حسنه، فعبر النهر الى الضفة الاخرى واتجه صوب القلعة القريبة من شاطئ النهر ،فعندما ركز مخلف النايف نظره صـوب القلعة ..... الشـكل الغير منتظم .. الكبير والخرب اثار ذلك الشـكل المرهب ذاكرته فاسـتذكر كل ما كان يقال في الماضـي عن القلعة، وما هو معروف ومتداول لدى جميع سـكان القرى المحيطة بالقلعة من ان القلعة يسـكنها شـخص مجنون بل حتى ان اهل تلك القرى راحوا يخيفون اطفالهم الذين لا يستكنون ولا ينامون ليلا بانه سيأتيهم المجنون من القلعة ،ذو الشكل والكلام الغريبين .فمخلف الذي اسعفته الذاكرة ببعض المعلومات عن المكان /القلعة بانه مشغولا بمجنون ،فهو مكان غير اليف ،ولا يمكن ان يلجأ اليه انسان عاقل مثل مخلف النايف .ومع ما كل قيل عن القلعة وما يوشـح هذا المكان ويعكس صـورته المخيفة وغير الاليفة ...الشـكل الخرب/وجود المجنون فيه...لم يثن ذلك كله مخلف النايف من التوجه الى القلعة بتوجس ، ليصلها وليسلم لحظة وصوله لها بكل ما يدور في ذاكرته عن القلعة والمجنون على انه فيها عندما اخذ يسـمع بخطاب تاريخي متهدج موجه الى آشـور ،وهو يصـدح من جوف القلعة المظلم ، من ان المجنون موجود فيها فعلا والذي سـمع عنه الكثير .فمكث مخلف طويلا عند باب جوف القلعة ،ثم ارهف السـمع ،وامعن البصـر وتدبر ذلك الخطاب فايقن ان الكلام الذي يسـمعه ما يقوله مجنون ،بل ولا حتى شـخص سـليم عادي ،وانما لا بد ان يكون صـاحبه ممعن بالثقافة والمعرفة ،فوقف عند باب جوف القلعة وهو يسمع ذلك الخطاب المتواصل منبهرا حتى ان خرج صـاحب ذلك الخطاب من جوف القلعة والتقى به فحصـل بينهما تعارف وتبين انه رجل مهاجر من فلسطين يدعى نمر الفلسطيني ،ثم شرع بشرح ظروفه وسبب هجرته من وطنه فلسطين ،وعن الالية والكيفية التي وصـل بها لهذا المكان ،بعدها اتفق الاثنان على العيش سوية في القلعة ....وهذا الاسـترجاع من الاسـترجاعات الخارجية التي كانت علاقته غير مباشـرة بالحدث ،وهو يوظف لدفع عجلة الحدث الى امام ويعزز من راهنة السردي .وثمة استرجاع آخر يرتبط بشخصية مخلف النايف يتذبذب بين الماضـي البعيد وحيث زمن الطفولة وحكايات الجدات عن السـعالي ،والماضـي القريب وموضـوعة غرق حبيبته (حسـنه)في النهر محاولا اختزال الزمن وطوي المسـافة بين الزمنين الماضـي البعيد /القريب وربطهما بحاضـره السـردي ،وهو يجلس على شـاطئ النهر بقرب زميله نمر ،اذ اخذ النهر يستفز ذاكرته على اعادة شريط الماضـي الذاكراتي واستدعاء منه ماله علاقة بالحاضـر الذي حفز على هذا الاسـتدعاء .....الماضـي البعيد وحكايات الجدة عن السـعالي /الماضـي القريب غرق حسـنه /الحاضـر النهر وعلى شـاطئه مخلف واحلامه ...فالنهر

يمثل مستودع /السعالي /حسنه /احلام مخلف وطموحاته... يقول الراوي:((يجلسان على الشاطئ كالأيتام ...كالذين فقدوا كل شيء في النهر. مثل الذي ينتظر معجزة قادمة من السماء ....تذكر مخلف حكاية جدته عن السعالي النهرية عن افتراسها وسرقتها للأطفال الذين يقربون النهر ...أترى هل سرقت السعالي حسنه ؟.هل تزوجت احد ذكور السعالي ؟. اهي سعيدة به؟ أتراني الان على الشاطئ ...كما ترى السعالي... أتأتي في الليل للأكواخ كما تأتي السعالي ....اتكون عنزا وثعلبا كما تكون السعالي ؟..))[49]. يتركز هذا الاسترجاع على بؤرة الذاكرة ،بعدما يختفي الراوي العليم قليلا ،فاسحا المجال امام الشخصية (مخلف) للعودة للماضي ،واستدعاء ماله علاقة بعامل الاستدعاء (النهر)الذي ابتلع (حسنه) وكانت سبب وجوده في هذا المكان . فيستذكر من الماضي اولا ،حكاية الجدة عن السعالي وهي تعيش في النهر ،محاولا ربط تلك الحكاية الذاكراتية بالماضي القريب (غرق حسنه) في النهر ،والتوليف بينهما بحالة من الترابط بين السعالي وحسنه برؤية ذاتية داخلية ...وبسرد ذاتي منطلق من الذاكرة ،اذ ان من خلالها يضع الاسترجاع في نطاق منظور الشخصية ،ويوشحه بطبيعة خاصة تعطيه مذاقا عاطفيا.

2- الاستباق :

وهو تقانة سردية تمهد او تعلن عن احداث قبل وقوعها، اذ ينطلق السرد ((صعودا من الحاضر الى المستقبل متخطيا النقطة التي وصل اليها))[50]،ويتم ذلك عن طريق ((القفز على فترة ما من زمن القصة وتجاوز النقطة التي وصلها الخطاب لاستشراف مستقبل الاحداث والتطلع الى ما سيحصل من مستجدات في الرواية))[51] .ولذا فان هذه التقنية تدفع بالقارئ الى التشويق ومواصلة فعل القراءة، اذ تحمله على توقع حدث او التكهن بما ستؤول اليه مصائر الشخصيات .يلجأ الراوي في الاعلان عن الاستباق الى استخدام الفعل المضارع الدال على المستقبل ،وهو الفعل الاصلح عمليا للتشكيل السردي في مثل هذه التقانة الزمنية ،وهو غالبا ما يأتي تمهيدا لحادثة معينة سواء تحقق حدوثها ام لم يتحقق، فهي لها علاقة بأحداث الرواية .وفي رواية صدى مكحول استباقات قليلة قياسا بالاسترجاعات المعتدلة تقريبا ،وهي تأتي – غالبا – على شكل جمل سردية قصيرة ،ومكثفة. يقول الراوي:((كان فرحا هذه المرة، يود لو توصله الطائرة الى قريته ،يود لو تكون قريته امتارا منه ،ففي رأسه مشروع الزواج ..سوف يطلب يد حسنه من ابيها في اول يوم من اجازته ،وسيتزوجها في اليوم الثاني ....))[52].

يبين هذا المقطع الاستباقي ما يدور في ذهن مخلف النايف وهو داخل الطائرة العسكرية التي تقله من خطوط المواجهة مع العدو في المنطقة الجبلية الى مدينة السليمانية، بعدما كرم بإجازة عسكرية اثر تنفيذه لدورية مهمة على مواضع العدو .فهو شديد الفرح بهذه الاجازة والتوجه الى الاهل والقرية ،اذ انه في القرية سبق وقبل التحاقه للجبهة – ان اتفق مع حبيبته حسنه على

الزواج بأقرب اجازة قادمة ،وها هو في زمنه الاني قد حصل على اجازة، فهو يود في حاضره لو ان الطائرة توصله الى القرية مباشرة، وتختزل كل المسافات ،بل وتسبق الزمن من اجل الوصول الى البيت لتحقيق حلمه بطلب يد حسنه في اول يوم وصوله، على ان يكون الزواج في اليوم الثاني .على ان هذه الافكار ستنقلب رأسا على عقب ويتحوله حلمه وطموحه الى حزن وفجيعة في قادم السرد ،حال وصوله البيت وكشفه لوالدته عن نيته طلب يد حسنه والزواج منها ،اذ يفاجا بما جرى لحسنه بعد ذهابه للجبهة من امور ،وهي الزواج من ممدوح ومن ثم الانتحار .انتحار حسنه كان مجهول السبب لدى جميع سكان القرية ،وحتى عودة مخلف من الجبهة ،ولما كشف عن العلاقة القوية بينه وبين حسنه تجلت كل الامور ولا سيما سبب انتحار حسنه .مخلف وبعد خيبة امله ومعرفته بمصير حسنه اضطر الى مغادرة القرية. والراوي اذ يكشف عن افكار مخلف بعد حصوله الإجازة واثناء توجهه الى البيت فانه يخترق جمجمته ،ويسرد كل ما كان يدور في مخيلته ويشغل فكره من طموحات واحلام ولا سيما الفوز بالحبيبة حسنه.

يقول الراوي:((– وحيدة .....سأتزوجك ....اقسم لك بذلك.

– وابي؟.

– سيوافق.

– لا اظن ذلك ....ماذا تملك حتى تتزوجني .الا تعرف مختاركم؟.

– املك حبي وكتفي ...سأعمل المستحيل))[53].

يكشف المقطع السابق ما يدور في ذهن احمد اثناء لقائه بالحبيبة وحيدة .فهو يحب وحيدة ابنة المختار وهي تحبه ،لكنهما يعيشان في قلق من المختار ونظراته الاستعلائية ،فهو شديد التسلط ولا يحب احدا من الناس الا الاثرياء واصحاب الاموال ،واحمد من طبقة فقيرة ومعدمة ،فهو لا يملك شيئا من المال يمكن ان يجعله صاحب حظوة ،وبالتاي فهو في وضعه الراهن لا يستطيع التقدم الى المختار لطلب منه يد حسنه ،وما عليه الا البحث عن وسيلة يطمئن بها وحيدة ،فهو لا يملك شيئا الا اللجوء الى الوعود التي يمكن بواسطتها التخفيف من حدة قلقها ،والتي تعد استباقا للزمن ،بعد ان اعلن انه سيبذل كل طاقاته ،بل انه سيعمل المستحيل لتغيير واقعه من اجل التقرب الى المختار وبالتالي الزواج من ابنته وحيدة.

يقول الراوي:((ينطلق البدوي ماشيا في الصحراء بلا طريق .اتبعه بلا نقاش لقد صرت عبده المطيع انها المرة الاولى التي ادخل فيها الصحراء لكني سأعيش فيها اياما ...))[54]. يكشف الاستباق في النص السابق ما يضمره الراوي (نمر الفلسطيني) لصاحبه الرجل البدوي اثناء دخولهم الى صحراء العراق ،بعد ان اتخذ منه نمر الفلسطيني وسيلة لعبور الحدود السورية ، فنمر لا يملك مالا ولا جواز سفر للخروج من سوريا ،وقد قرر مع نفسه ان يكون سفره مع البدو الرحل ، فهم

يعبرون الحدود بلا اوراق ولا مستمسكات ثبوتية ،بعدها التقى نمر الفلسطيني هذا البدوي في حلب وحاول التقرب منه ،فادعى له انه صياد نسور ويبحث عن اماكن تواجدها ،فتمسك به البدوي واصطحبه معه، وتمكن نمر بواسطته من الوصول الى الصحراء الغربية ،وفي كل ظن البدوي ان صاحبه نمرا صياد نسور فعلا ،وانه سيمكث عنده طويلا ،ولكن الافكار في مخيلة نمر غير ذلك .لذا جاء هذا الاعلان الاستباقي يقدم وجهة نظر الراوي (نمر الفلسطيني)وما كان يخطط له فعليا ،فهو لم يأت للصحراء لصيد النسور وانما ليتخذ منها مستقبلا – محطة للسفر بحثا عن المكان المناسب له.

4- المكان: يشكل المكان الروائي احد المكونات الاساسية في بناء الرواية، بوصفه مسرح الاحداث او الحيز الذي تتحرك فيه الشخصيات ،او تقيم فيه فتنشأ بذلك علاقة متبادلة ،بين الشخصية والمكان ،وهي علاقة ضرورية ،لتمنح العمل الروائي خصوصيته ،وطابعه، ومن ثم ليكتسب المكان صفاته ومعناه ودلالته. ليس المكان في الرواية مكانا حقيقيا ،وانما مكان لفظي متخيل صنعته اللغة انصياعا لأغراض التخييل الروائي وانسجاما مع متطلباته .يعتمد الروائي في صياغته على الذاكرة وما مخزون فيها من صور الامكنة التي عرفها او عاش فيها ،او على قدرتها في الخلق والمواءمة والتشكيل ،فهو ((يبني على اساس من التخييل المحض، لكنه لا يكتسب ملامحه واهميته ، بل وديمومته، اذا لم يتماثل بدرجة او بأخرى مع العالم الحقيقي خارج النص))[55]،وذلك لاستحالة بناء الحدث والشخصية في مكان غير واضح المعالم ،اضافة الى كون المكان يجعل الاحداث المتخيلة ذات مغزى مماثل لمظهر الحقيقة ،بوصف المكان عنصر فاعل وبشكل كبير في ربط الاحساس بمظاهر الحياة وجوانبها المختلفة. تجري الاحداث والفعاليات في رواية صدى مكحول في اماكن متعددة ومتنوعة ،وغالبا ما تكون ذات فضاء متضاد ،ذلك ان هذه الرواية جمعت في احداثها بين السلم والحرب ،الحياة المدنية، والحياة العسكرية ،وما تفرضه هذه العناوين من ظروف ،وسمات خاصة تطبع فيها الواقع الروائي ،وتحتم تشعبا وانواعا مختلفة من الامكنة .فالقارئ المتتبع لهذه الرواية يجدها حاشدة بشبكة اماكن مختلفة ومتنوعة ،بأنماطها المتعددة التي تؤلف جغرافيا شديدة الاتساع والشمول .فهي تمتد من الفضاء السوري الشاسع ،حيث دمشق ،حلب مرورا بصحراء العراق الغربية ،وحيث منطقة الحضر ،وقلعة آشور ،نهر دجلة ،وفضاء القرى المجاورة ،قرية اسديرة بيوتها واكواخها ،احواشها وحقولها ،هذا بالنسبة للحياة المدنية وظروف السلم .اما ظروف الحرب والعسكرية فقد افرزت امكنة خاصة بظروفها وملابساتها ،هي :الملجأ، الخندق، الربيئة ،الارض الحرام ،اضافة الى المدينة التي تدور ارض الحرب في قاطعها ،او على مقربة منها ،وتتأثر بأجواء وظروف الحرب ،مثل مدينة السليمانية الى عدت المكان الثاني ،الآمن للمقاتلين ،ففيها ينفهون عن انفسهم بعيدا عن هول الحرب وويلاتها ،ومنها

يتبضعون حاجياتهم الضرورية، فضلا عن انها مكان الانتقال والتواصل بين البيت والجبهة .ان هذا التنوع والاختلاف والشمولية المكانية تجعل التوجه الامثل في دراسة هذا الفضاء الشاسع ان يعتمد على علاقة الشخصية في هذه الامكنة، ومدى التلبث في افضيتها ،وطبيعة الحياة الخاصة والعامة فيها ،وطبيعة الاحساس بها ،فهي اما تحيا وتعيش فيها بألفة وارتباط ،واما تعيش فيها مضطرة وبحالة من الكراهية والنفور ،ومن هذا المنطلق ارتأينا تقسيم المكان على نمطين أ- **المكان الاليف** ،ب- **المكان المعادي** .

أ- المكان الاليف:

وهو المكان الذي ينسجم معه الانسان بصورة طبيعية ،ويحس بنوع من الألفة تجاهه، فيكون جزءا من كيانه ،ويتمثل هذا في كل ((مكان عشنا فيه وشعرنا بالدفء والحماية ،بحيث يشكل هذا المكان مادة لذكرياتنا، ويعد البيت ولا سيما بيت الطفولة اشد انواع الامكنة الفة))[56]، فهو المكان الذي ولدنا فيه ،وترعرعنا في كنفه ،وقيم الالفة موزعة في كل طرف من كيانه .ولا تقتصر الفة الانسان على المكان الذي ولد فيه او عاش فيه فحسب ،بل على كل مكان يحس بألفة ازاءه ،سواء اكان خاصا او عاما ،شارعا ام حديقة ،مقهى ام متنزه ،بيتا ام قرية ،او اي مكان يحس فيه بالأمن والطمأنينة والاستقرار. تتحرك اكثر الشخصيات في رواية صدى مكحول في امكنة متنوعة تبدو فيها خصوصية المكان الاليف، اذ ان تلك الشخصيات تمارس طقوس حياتها اليومية فرحها وحزنها بكل حيوية وعفوية ،وترتبط بالمكان دونما احساس باي خطر خارجي او داخلي، او شيء ما من شانه يعكر صفوة اجواء المكان، ويهدد امنه واستقراره. يقول الراوي:((حوش الدار يزداد اكتظاظا بالناس .لكنه كبير ومرتفع قليلا .لا اثر لمطر الامس فيه مجرد ارضه رطبة .الناس في الحوش مشغولون بالتهيئة للعرس ،احدهم يهيئ الفوانيس و(اللوكس) وبعض الشموع التي اتوا بها من المدينة، والآخر يقوم باختبار (مطبگه) والاخر يحز ربابته وذاك يضرب على دفه وطبله استعدادا للعرس .وقطع من القماش الملون تعلق على أسقف الدار وعلى جدران الحوش ...بدأت الشمس تميل الى الغروب. لم تبق الا ساعة او اقل لتغيب الشمس ويغيب العريس مع عروسته ، في غرفة تفوح منها رائحة البخور والمسك والخضيرة والقرنفل وكل عطور القرية التي اشترتها النساء من العطار ايوب النصراني))[57].المكان هو دار المختار عطية السلمان، وهو يشمل البيت بغرفه، والحوش بفنائه، واذا كان البيت بصفته الخاصة والمميزة انه مغلقا على ساكنيه، فان بيت المختار انفرد بصفة خاصة وهي انه انفتح على الاخرين وهم ابناء القرية عامة ،ليستقبل كل الذين يشاركون بعرس ممدوح ابن المختار ،والذي تم دعوتهم من قبل المختار في الليلة الماضية من مسجد القرية ،فحوش الدار يكتظ بالناس الذين راحوا يتزاحمون في الدخول اليه، اذ تحول الى فضاء رحب تتحرك فيه الشخصيات بحرية ،وهم يشعرون بالراحة

والاستقرار ،فضلا عن انفتاح العلاقة الانسانية لصاحب الدار (عطية السلمان)على ما حوله من ابناء القرية ،وحالة الالفة والترابط والتفاهم التي تشدهم الى بعضهم حتى راحوا يتقاسمون الاعمال والتحضيرات التي يتطلبها العرس، فكل يؤدي دوره وبحسب ما موكل اليه. ويرصد الراوي تلك الاعمال ، فضلا عن حالة التزيين بقطع القماش الملون التي وضعت على الجدران ،ورائحة العطر التي راحت تفوح بغرفة العريس. فالمكان بفضائه المفتوح وما يوشحه من تزيين وجمال وهو يستقطب اكثر ابناء القرية ،عكس حالة الالفة والانسجام وعمق الانتماء الانساني للمكان، البيت/القرية عموما. يقول الراوي:((يتراكضون نحوه اطفال صغار .يتلاهثون ، بعضهم سلم عليه والآخر يلتقط الاكياس والحقائب التي فيها ما جلب من المدينة ...يتراكضون بعضهم نحو بيته ليبشروا اهله بمقدمه من الجبهة سالما...الكل عرف بمقدمه فلا شيء سري في هذه القرية ولا شيء قابل للاختفاء بين هذه الاكواخ ..يتراكضون اخوته الصغار ،ووالدته التي لا تستطيع الركض فقد كانت حاملا بشهرها السابع ...يشبك اخوانه بين ذراعيه رافعهم الى صدره. مقبلهم من خدودهم تقترب منه امه تحضنه، تقبل خدوده، جبينه، يده .تشم صدره ،وكأي ام عائد ابنها من الموت ،من جبهة الحرب مع الاعداء....))[58]. فالحفاوة والاستقبال من الاهل لمخلف النايف العائد من الجبهة، الى اهله ،امه واخوته وهم يقطنون في بيتهم ،موطنهم الاساس .فاخذ البيت يلفهم بحمايته وامنه ،فهو ملاذهم ومأمنهم يجدون فيه خلاصهم وانسانيتهم ،ويرتبطون فيه بعلاقة الفة وانتماء ،فهو مأواهم الاول والاخير ،يلوذون به ويحتمون بظله من كل تأثير خارجي. فمخلف النايف مهما ابتعد عن البيت يبقى مرتبطا به برابط مشيمي ،وكلما سمحت له الفرصة ،او منح اجازة عادة اليه.. موطن الاهل والاحبة والجيران ،فهو موطنه الاول والاساس ،يمارس فيه طقوس حياته الخاصة بحرية تامة ، فهو مستودع لحقائقه واسراره، همومه واحزانه وافراحه ،عودة مخلف للبيت هي اولا للراحة والاستجمام بعيدا عن هول الحرب وويلاتها ،وثانيا هو يحمل في ذهنه مشروعه للزواج من حبيبته ،فهو في بيته يفكر ويخطط وينفذ ما يحلو له وما يطيقه ،اذ ان في البيت يشكل عالمه الخاص وجوهر وجوده ،ففيه يتمتع بممارسة خصوصياته جميعا ،مما يولد الالفة والانسجام في شعوره تجاه المكان. ويسهم الوصف التفصيلي بالكشف عن مكونات المكان الاليف وابراز جمالياته ، من ذلك وصف الراوي لمدينة السليمانية. يقول الراوي:((جميلة هي السليمانية تعج بالحركة وسط جبال تحيطها من كل الجهات. وشوارع نظيفة ككل مدن الشمال ...الخضرة تحيط بها من كل الجهات ،في داخلها ترتفع كثير من الاشجار العالية .الجبال المحيطة بها خضراء ما عدا قممها العالية فالثلوج تغطيها .يتطلع للمدينة هادئة ،آمنة رغم انها قريبة من الاعداء .لا شيء يذكرها بالحرب سوى الالاف من الجنود المتجولين في شوارعها وفي مقاهيها وامام حوانيتها، وهم يتسوقون ما يحتاجون قبل الرحيل الى الجبهة الى الملاجئ المواجهة للأعداء ....))[59]. فالمكان

/الســـليمانية بفضـــائها المفتوح مكان واقعي ،اذ له وجود حقيقي في جغرافية الانســـان الطبيعية المعروفة والمتداولة التي لا خلاف على تحديدها ، ولها حضـــور متفق عليه في مســـار التداول الانساني .وقد حاول الراوي في وصفه لهذه المدينة لا يفصلها من حيث الدلالة الفضائية وارتباطها الســـردي بالجبهة ،فالســـليمانية مرتبطة جغرافيا بالجبهة وارض المعركة قريبة منها ،فهي مدينة حدودية وارضـــها ارض جبلية، وهي امتداد لســـاحة المعركة والقاطع العســـكري المحاذي لحدودها مسمى باسمها (قاطع السليمانية)،والراوي اذ يصف هذه المدينة فهو يكشف عن سعتها ،وجمالها ،فهي رغم قربها من الجبهة وظروف الحرب الا انه لا شـــيء يعكر صـــفوتها وجمالها ،فشـــوارعها واسعة ونظيفة، والأشجار بخضرتها الجميلة تشغل اكثر اراضيها وسفوح جبالها ،يلف هذه المدينة بجمالها وهدوئها الوارف الامن والطمأنينة والاســـتقرار ،حتى صـــارت مكان اســـتقطاب الالاف من الجنود وهم يتبضعون حاجياتهم وينعمون بجمالها والفتها .

- المكان المعادي:

وهو كل مكان تشـعر فيه الشـخصـية بالاضـطهاد ،والكراهية والنفور، فلا الفة لها نحوه ،ولا علاقة تربطها فيه. تقيم الشـــخصـــية فيه مجبرة كالســـجون والمعتقلات، واماكن الغربة ،او اي مكان لا يحمي ساكنيه ،ويكمن فيه خطر الموت لسبب ما. يتجسد المكان في رواية صدى مكحول على العموم في الامكنة التي افرزتها الحرب ،وفي الامكنة القريبة من ســـاحة الحرب ،والتي تتأثر بظروف المعركة وتأثيراتها المختلفة كالقصف المعادي ،والقنص ،وقربها من العدو اضافة الى عدم توفر مستلزمات الامن فيها.

يقول الراوي:((على خاصرة الجبل الشاهق الممتد من الشمال الى الجنوب تقام قرية عراقية .لكنها موحشـة ،فلا حركة فيها. لقد هجرها الاحياء بفعل الحرب ومات فيها من لم يسـتطع الرحيل ...))[60]. لقد تحولت القرية المكان الاليف والتي كانت مفعمة بالحركة والحياة، ويلفها الامن والجمال وهي تحتضن ابناءها الى مكان مهجور ،موحش بسبب الحرب التي تقع على مقربة منها فهي في متناول القصـف المعادي الذي طال اكثر سـكانها ،وقتل من قتل من اهلها ،وغادرها من استطاع النجاة بنفسه، فالمكان /القرية اصبح لا يطاق فهو فقد الامن والامان مثير للقلق والخوف ،بل ان خطر الموت مخيم عليه ويهدده في كل لحظة بفعل الحرب، فالأنســـان بطبعه الخاص يناشد الامن والاستقرار و يبحث عن السلم والعيش بحرية وأمان ، فلا حياة ولا استقرار مع الحرب وقريب منها ،ولذلك ترك كل ابناء هذه القرية قريتهم ، فلا الفة ولا اطمئنان لهم فيها ،حتى اصبحت هذه القرية خالية موحشة فلا حركة فيها ولا حياة.....

ومن الاماكن المعادية الاخرى الموضع، وهو المكان الذي تفرضه طبيعة الحرب وملابساتها .

يقول الراوي:((نظر حوله، جانبه، مواضـــع يقترب بعضـــها من بعض ،مواضـــع رفاقه وقد بعثرت بعضـــها القذائف المعادية ويختبئ تحتها كثير من رفاقه الاموات والاحياء والجرحى الذين يئنون بأسى ....سلسلة من المواضع يستقربها فوجه...))[61]. الموضع المكان الذي تفرزه الحرب وظروفها المختلفة ،فهو مكان مصطنع طارئ وبديل عن المكان الاصلي ،الغرفة ،او البيت ،القرية او المدينة، ينشـــئه الجنود في ارض المعركة، وهو عبارة عن قياس محدد محفور بعمق معين مسقف من الاعلى ومحدد له باب خفي بعض الشيء ،فهو يصمم على شكل غرفة ، فهو مكان مشـــوه وبديل ، مفروض على الجندي ،فلا حيلة له في ســـاحة المعركة عنه .والموضـــع معرض لشـــتى المؤثرات المميتة التي تفرض هيمنتها على الشـــخصـــية التي تعيش فيه ،فكثيرا ما يحيله القصف المعادي الى ارض مكشوفة، فلا تصمد هذه المواضع امام قسوة الظروف وهول القصف المعادي، والراوي وهو يرصد بعض المواضع ،ويكشف عما ناله منها القصف المعادي ،فقد بعثر اكثرها ،الا ان ما بقي منها فهو يحتضـــن الاحياء والاموات والجرحى ،فالموضـــع مجمع الالآم والقهر والحزن وباعث على الذكرى الاليمة، لا ترغبه نفوس ســـاكنيه ولا تألفه ، ولا تلجأ اليه الا مرغمة مضـــطرة ،لقلة الحيلة وبعد فقدها لكافة حلول التفاهم مع الآخر. ومن الاماكن التي تفرزها الحرب الارض الحرام /المكان الميت في العرف العسكري.

يقول الراوي:((تزداد القذائف شـــدة ،وتزداد اصـــعدة الدخان من كلا الطرفين .وارض الحرام التي هو فيها ساكنة لا يستطيع احد الاقتراب منها. انها الساحة الليلية ،انها ارض الدوريات الليلة وموقع للتصادم في الظلام .القذائف المعادية والصديقة تتجاوزه وهو في الوسط قرب جثة خلدون. جالس تحت اشـــجار غطاها الثلج ،جالس لا يتحرك...))[62].الارض الحرام هي المكان الفاصـــل بين الطرفين المتقاتلين، فهي في مرمى الطرفين ،فلا يدخلها احد الا بعض الدوريات ســـواء اكانت من هذا الطرف او ذاك ،وبشرط ان تكون محدودة العدد ،واثناء ظلمة الليل وبهدوء وحذر شديدين .اذ تدخل الدورية الى الارض الحرام في غفلة من العدو وتصـــل الى اقرب نقطة ممكنه منه ، فترصـد قوة العدو وامكانياته، وتسـجل الدورية من قبل مراجعها في عداد الخسـائر حتى عودتها، فالأرض الحرام يخيم عليها خطر الموت بنســـبة عالية جدا، فهي محاطة بالخطر من كل جانب ،فالأرض مزروعة بالألغام ومن الجانبين ،والســـماء مفتوحة امام اســـلحة الطرفين الثقيلة منها والخفيفة المخصـصـة لمقاومة اي تحرك في الارض الحرام ،اضـافة الى المراصـد الليلية المعادية ودوريات العدو .فالأرض الحرام مكان مهدد بخطر الموت بكل لحظة ، فهو عادة للمرور الســـريع لا للبقاء المتأني ،ومع كل هذه الظروف تواجد فيه مخلف النايف واطال المكوث بعض الشـــيء رغما عنه ،فهو مكلف بأمر عســـكري لتنفيذ دورية في الارض الحرام والاســـتطلاع على مواضـــع العدو ،فهو اضـــافة الى خطورة تنفيذ الواجب ،واحاطته بمخاطر جمة واجهته عاصـــفة ثلجية فقد

بســـببها زميله خلدون ،فمخلف في راهنه الســـردي اثناء وجوده في الارض الحرام يواجه مختلف الظروف واشدها قسوة على الانسان ،فإضافة الى شدة البرد يواجه ضغوطا جسدية ونفسية ،وفقدان لأبســـط مقومات الامن والحرية والاســـتقرار ومســـتلزمات الحياة الاخرى ،فهو في مكانه/ الارض الحرام يهدده خطر الموت ويكتنفه القلق والذعر، فيتواجد فيه مرغم وهو يكن له كل الكراهية والنفور والعداء ،وهو مشدود في النهاية لا قرب لحظة يخف فيها انهمار الثلج لمغادرة المكان.

الهوامش

(1) الادب وفنونه:159.

(2) المتخيل السردي :121.

(3) صدى مكحول:9.

(4) م.ن:13.

(5) م.ن:14.

(6) م.ن:15.

(7) م.ن:20.

(8) م.ن:31.

(9) م.ن:35.

(10) م.ن:38.

(11) م.ن:39-40.

(12) م.ن:42.

(13) ينظر: مقاربات في الرواية والاقصوصة:21.

(14) ينظر: بنية الشكل الروائي :20.

(15) ينظر: معجم المصطلحات الادبية، ابراهيم فتحي:212.

(16) ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب:211.

(17) صدى مكحول:9.

(18) م. ن: 7-8 .

(19) م.ن:10-11.

(20) م. ن:9-10.

(21) م. ن :14.

(22) م. ن:21.

(23) م. ن:26-27.

(24) م. ن: 28.

(25) م. ن:27.

(26) م. ن:31.

(27) ينظر: الفضاء الروائي ،عبد الرحيم مراشدة:25.

(28) صدى مكحول:66-67.

(29) م. ن:56.

(30) ينظر: م. ن:76-78.

(31) عالم الرواية:50.

(32) بنية الشكل الروائي:215.

(33)صدى مكحول:39-40.

(34) م. ن : 40-42.

(35) م. ن: 8.

(36) م. ن: 22.

(37) اركان القصة: 83.

(38) صدى مكحول:14- 15.

(39) م. ن:12- 13.

(40) م .ن :20.

(41) م. ن :27.

(42) م. ن:33.

(43) م. ن: 52.

(44) م. ن :85.

(45) م. ن : 89- 90.

(46) بنية الشكل الروائي :121.

(47) صدى مكحول :17.

(48) م. ن : 53.

(49) م. ن : 124.

(50) خطاب الحكاية:51.

(51) الالسنية والنقد الادبي: 96.

(52) صدى مكحول :48.

(53) م . ن: 14.

(54) م. ن: 84.

(55) البناء الفني لرواية الحرب في العراق :127.

(56) البناء الفني في الرواية العربية في العراق (الوصف وبناء المكان)ج2: 99.

(57) صدى مكحول :11.

(58) م. ن: 50.

(59) م. ن :49.

(60) م. ن: 25.

(61) م. ن:25- 26.

(62) م. ن:39.

المصادر والمراجع

1- الادب وفنونه ، عز الدين اسماعيل ،دار الفكر العربي، ط1 ،1976.

2- اركان القصـــة ،أ.م ،فورســتر .ترجمة :كمال عياد جاد ،مراجعة حســن محمود ،دار الكرنك للنشر ،القاهرة، 1960.

3- الالســنية والنقد الادبي في النظرية والممارســة ،موريس ابو ناضــر ،دار النهار ،بيروت، 1979.

4- البناء الفني في الرواية العربية في العراق(الوصـف وبناء المكان) دار الشـؤون الثقافية العامة ،ط1 ، بغداد ،2000.

5- البنـاء الفني لروايـة الحرب في العراق: دراســـة لنظم الســـرد والبنـاء في الروايـة العراقيـة المعاصرة، عبد الله ابراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة ،ط1 ،بغداد،1988.

6- بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن – الشخصية) حسن بحراوي ،المركز الثقافي العربي ط1 ، بيروت ،الدار البيضاء،1997.

7- خطاب الحكاية: بحث في المنهج ،جيرار جينيت، ترجمة: محمد معتصم وعبد الجليل الازدي وعمر حلي ،المشروع القومي للترجمة ،ط1997،2.

8- صدى مكحول (رواية) ابراهيم حسن ناصر ،مطبعة شهاب ،اربيل ،2014.

9- عالم الرواية ،رولان بورنوف ،وريال اوئيليه، ترجمة نهاد التكرلي، محسن الموسوي ،دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد،ط1991،1.

10- الفضـــاء الروائي (الروايـة في الاردن نموذجـا) عبـد الرحيم مراشـــدة ،وزارة الثقـافـة، عمان،2002.

11- المتخيل الســـردي :مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة ،عبدالله ابراهيم ،المركز الثقافي العربي ،ط1،بيروت، الدار البيضاء،1990.

12- معجم المصــطلحات الادبية ،ابراهيم فتحي ،المؤســســة العربية للناشــرين المتحدين، طبع التعاضدية العالية،ط1،تونس،1986.

13- معجم المصـــطلحات العربية في اللغة والادب ،مجدي وهبة وكامل المهندس ،مكتبة لبنان ،ط2،بيروت،1994.

14- مقاربات في الرواية والاقصوصة ،بشير الوسلاتي وسعيدان سوسة ،ط1، تونس،2001.

References

1- Literature and its arts, Izz al-Din Ismail, Dar al-Fikr al-Arabi, 1st edition, 1976.

2- The Pillars of the Story, A.M., Forster. Translated by: Kamal Ayad Gad, revised by Hassan Mahmoud, Karnak Publishing House, Cairo, 1960.
3- Linguistics and Literary Criticism in Theory and Practice, Maurice Abu Nader, Dar Al-Nahar, Beirut, 1979.
4- The Artistic Structure in the Arabic Novel in Iraq (Description and Place Building) House of General Cultural Affairs, 1st Edition, Baghdad, 2000.
5- The artistic structure of the war novel in Iraq: a study of the narrative and construction systems in the contemporary Iraqi novel, Abdullah Ibrahim, House of Public Cultural Affairs, 1st Edition, Baghdad, 1988.
6- The Structure of the Narrative Form (Space - Time - Personality) Hassan Bahrawi, The Arab Cultural Center, 1st Edition, Beirut, Casablanca, 1997.
7- Discourse of the story: A study in the curriculum, Gerard Genette, translated by: Muhammad Mutasim, Abdul-Jalil Al-Azdi and Omar Helli, the National Project for Translation, 2nd Edition, 1997.
8- Sada Makhoul (novel) Ibrahim Hassan Nasser, Shehab Press, Erbil, 2014.
9- The World of the Novel, Roland Burnouf, and Real O'Lee, translated by Nihad Al-Takarli, Mohsen Al-Moussawi, House of Public Cultural Affairs, Baghdad, 1, 1991.
10- The Narrative Space (The Novel in Jordan as a Model), Abdel Rahim Marashdeh, Ministry of Culture, Amman, 2002.
11- The Narrative Imaginary: Critical Approaches to Intertextuality, Visions and Significance, Abdullah Ibrahim, The Arab Cultural Center, 1st Edition, Beirut, Casablanca, 1990.
12- A Dictionary of Literary Terms, Ibrahim Fathi, The Arab Association for United Publishers, High Mutualism Publishing, 1st Edition, Tunis, 1986.
13- A Dictionary of Arabic Terms in Language and Literature, Majdi Wahba and Kamel Al-Mohandes, Library of Lebanon, 2nd Edition, Beirut, 1994.
14- Approaches in the Novel and the Fiction, Bashir Oueslati and Saidan Sousse, 1st Edition, Tunis, 2001.